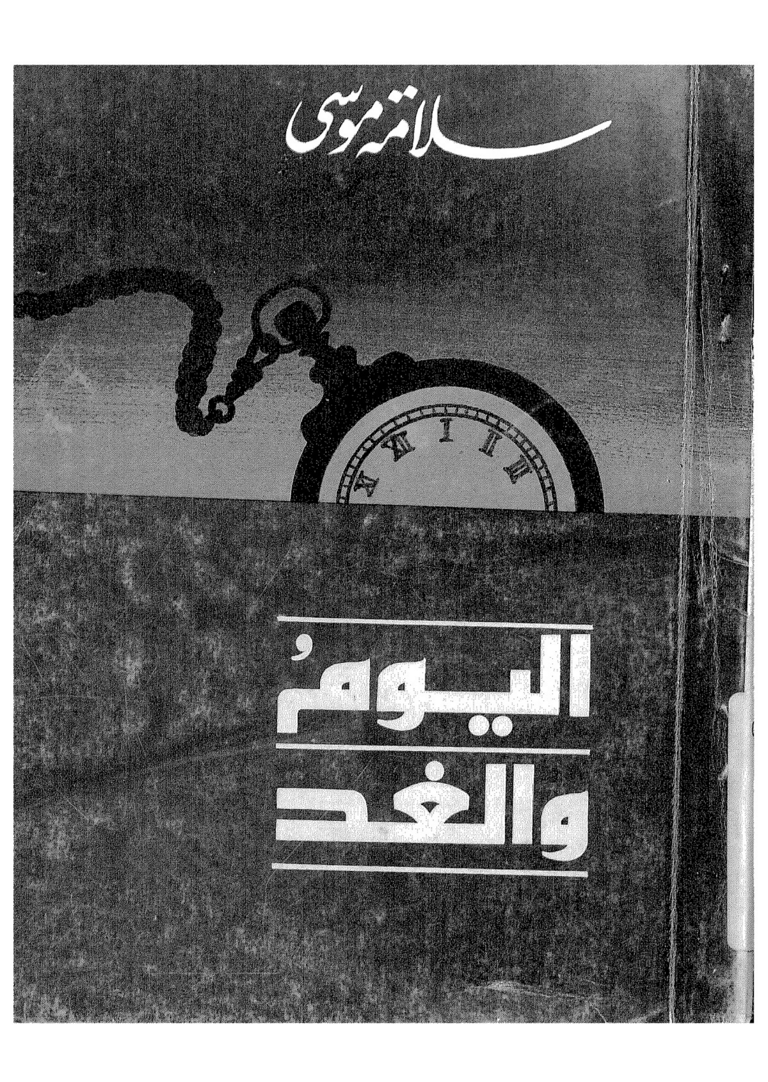

سلامة موسى
اليومُ
والغد

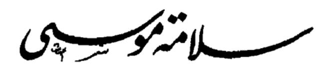



اليومُ والغد

مؤلفات سلامة موسى
وتواريخ صدورها

الكتاب	تاريخ الصدور
١ مقدمة السوبرمان	١٩١٠
٢ نشوء فكرة الله	١٩١٢
٣ الاشتراكية	١٩١٣
٤ أشهر الخطب	١٩٠٤
٥ الحب فى التاريخ	١٩٢٥
٦ أحلام الفلاسفة	١٩٢٦
٧ مختارات سلامة موسى	١٩٢٦
٨ حرية الفكر	١٩٢٧
٩ أسرار النفس	١٩٢٧
١٠ تاريخ الفنون	١٩٢٧
١١ اليوم والغد	١٩٢٨
١٢ نظرية التطور	١٩٢٨
١٣ قصص مختلفة	١٩٣٠
١٤ الدنيا بعد ٣٠ عاما	١٩٣٠
١٥ فى الحياة والأدب	١٩٣٠
١٦ ضبط التناسل	١٩٣٠
١٧ جيوتا وحيوب الاحاب	١٩٣١
١٨ غاندى والحركة الهندية	١٩٣٤
١٩ ما هى النهضة	١٩٣٥
٢٠ مصر أصل الحضارة	١٩٣٥
٢١ الأدب الانجليزى الحديث	١٩٣٦
٢٢ الشخصية الناجحة	١٩٤٢
٢٣ حياتنا بعد الخمسين	١٩٤٤
٢٤ حرية العقل فى مصر	١٩٤٥
٢٥ البلاغة العصرية واللغة	١٩٤٥
٢٦ التثقيف الذاتى	١٩٤٦
٢٧ عقلى وعقلك	١٩٤٧
٢٨ تربية سلامة موسى	١٩٤٧
٢٩ فى الحب والحياة	١٩٤٧
٣٠ طريق المجد للشباب	١٩٤٩
٣١ (مجموعة قصص)	
٣٢ محاولات	١٩٥٣
٣٣ هؤلاء علمونى	١٩٥٣
٣٤ كتاب الثورات	١٩٥٤
٣٥ الأدب للشعب	١٩٥٦
٣٦ دراسات سيكولوجية	١٩٥٦
٣٧ المرأة ليست لعبة الرجل	١٩٥٦
٣٨ برنارد شو	١٩٥٧
٣٩ احاديث الى الشباب	١٩٥٧
٤٠ مشاعل الطريق للشباب	١٩٥٩
٤١ مقالات ممنوعة	١٩٥٩
٤٢ الانسان قمة التطور	١٩٦١
٤٣ [illegible]	١٩٦٢
٤٤ الصحافة حرفة ورسالة	١٩٦٣
٤٥ معجم الافكار	

الغلاف للفنان خلف طايع



اليومُ والغد

سلامة موسى للنشر والتوزيع
تراث من الكفاح الهادف

الطبعة الأولى ١٩٢٨

مقـــدمة

كلما ازددتُ خبرة وتجربة وثقافة ، توضحت أمامي أغراضي من الأدب كما أزاوله . فهي تتلخص فى أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا . فانى كلما زادت معرفتى بالشرق ، زادت كراهيتى له ، وشعورى بانه غريب عني . وكلما زادت معرفتي باوربا ، زاد حبى لها ، وتعلقي بها ، وزاد شعورى بأنها مني وأنى منها

فأنا ازاول حرفة الأدب ، لكي أدأب فى وعظ أمتي بوجوب كفها عن ممارسة العادات التى اكتسبتها من آسيا ، ووجوب اصطناعها عادات اوربا . أريد حرية المرأة كما يفهمها الاوربى ، حتى نأمل يوماً ما فى رؤية قاضيات وطبيبات وطيارات ومعلمات ومديرات ووزيرات وعاملات فى مصر ، كما يرين الآن فى أوربا . ولا أريد أن أرى المرأة الشرقية فى مصر ، تلك التى تعرف كيف تأكل الصراصير لكى تسمن . أو تلك التى تعيش خاضعة لزوجها لا رأى لها معه ، ولا تستطيع أن تعيش بحرفة شريفة لو مات . أو تلك التى تخفى نفسها بنقاب يوحى اليها أن الرجال لم يخلقوا إلا لتأكلها أعينهم الخائنة وتفتض عفافها . وأريد من التعليم أن

يكون تعليماً اوربياً لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه . وأن يتولى تعليم اللغة رجال متمدينون يفهمون على الأقل نظرية التطور ، ولا ينسبون الشعر العربى لآدم وابليس . ولا يعتقدون أن اللغة العربية أوسع اللغات الآن وهى تكدنا فى التعبير البسيط . وأريد من الحكومة أن تكون ديمقراطية برلمانية كما هى فى اوربا ، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هرون الرشيد أو المأمون ، اتوقراطية دينية . وأريد أن أرى العائلة المصرية مثل العائلة الأوربية ، زوج وزوجة واولادهما بلا ضرار وبلا ضمد كما يجرى الآن فى آسيا . بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة ، ويمنع الطلاق إلا بحكم محكمة . وأريد من الأدب أن يكون أدباً اوربياً ، ٩٩ فى المائة منه قائم على المعنى والقصد لا على اللفظ كما كان الحال عند العرب . وأريد أدباً مصرياً أبطاله فتيان مصر وفتياتها ، لا رجال الدولة العباسية ولا رجال الفتوحات العربية . وأريد أن يكون همّ الأديب أكبر من أن يقول « فحسب » بدلاً من « فقط » ، أو يحفظ عبارات يستخرجها من الجاحظ أو الجرجانى ويدسها بين انشائه . ثم أريد أن تكون ثقافتنا اوربية لكى نغرس فى أنفسنا حبّ الحرية والتفكير الجرىء . أما الثقافة الشرقية فيجب أن نعرفها لكى نتجنبها ، لما نرى من آثارها فى الشرق : آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة والخضوع لأولى الأمر ظالمين أو عادلين

ولست أجهل أن آسيا قد حكمت مصر نحو الف عام ، وبسطت عليها حضارتها وثقافتها ، بل دست دمها فى دماء ابنائها . ولكننا نحمد الأقدار على اننا مازلنا فى السحنة والنزعة اوربيين ، اذ نحن أقرب فى هيئة الوجه ونزعة الفكر الى الانجليزى أو الايطالى منا الى أهل الصين أو

جاوه . وكذلك الحال فى سوريا وشمال افريقيا العربى ، فان سكان هذه الأقطار اوربيون سحنةً ونزعةً . فلماذا اذن لا نصطنع جميعنا الثقافة والحضارة الاوربيتين ، ونخلع عنا ماتقمصناه من ثياب آسيا ؟

أجل ، يجب أن نكون اوربيين ، بل اوربيين صالحين ، نعمل لسلام العالم . نشترك فى « عصبة الأمم » ونعمل لتقدم العلوم . نخترع ونكتشف ونقدم مواهبنا لخدمة الانسان ورقيه ، ونعيش عيشة حرة بعيدة عن التعصب أو الجمود ، بحيث ينتفع منا العالم كما ننتفع به

هذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى سراً وجهرة . فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب . وفى كل ماأكتب أحاول أن أغرس فى ذهن القارىء تلك النزعات التى اتسمت بها اوربا فى العصر الحديث ، وأن أجعل قرائى يولون وجوههم نحو الغرب ويتنصلون من الشرق . لأنى أعتقد أن لا رجاء لنا بالنجاح فى العالم ، بل لا رجاء لنا بأن نعيش عيشة ، اذا لم تكن سعيدة فلا أقل من أن تكون غير شقية ، إلا اذا تملصنا مما اكتسبناه من العادات الشرقية فى نظام العائلة ، ونظام الحكومة ، والنظر للمرأة ، والنظر للأدب ، حتى فى النظر للصناعات والمعايش

وهذه المقالات التالية هى وفق هذه النزعة . كتبت اثنتان منها بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١٤* . أما سائر المقالات فقد كتبت فى سنتى ١٩٢٥ و ١٩٢٦ . ولم أنقح شيئاً فيها إلا المقالة الأولى « مقدمة السبرمان » فأنى كنت قد كتبتها سنة ١٩١٠ وسنى إذ ذاك لا يتجاوز

* لم تنشر مقالتى « مقدمة السبرمان » و « نشوء فكرة الله » بين فصول هذه الطبعة . وقد نشرا ضمن « الأعمال الكاملة لسلامة موسى » .

العشرين ، فلما أردت اثباتها هنا رأيت فى تعابيرها مالا أعد عليه الآن ، واحتجت لذلك الى اعادة كتابتها كلها . ولم أبدل شيئاً فى الآراء وانما بدلت فى الاسلوب والتعبير

س م

مصر أصل حضارة العالم

يتجه نظر علماء الآثار فى جميع أنحاء العالم تقريباً الى أن مصر هى منبت الحضارة . وأن العالم ، سواء فى ذلك القديم والجديد ، قد اشتق حضارته منها . وليس ذلك لان المصريين كانوا أذكى من سائر الأمم ، حتى استنبطوا آلات الحضارة ومؤسساتها حين كان غيرهم من البشر لا يزالون يجوبون الغابات والبوادى ، وانما يرجع الفضل فى ذلك الى وادى النيل الذى هداهم الى الزراعة . والزراعة هى أصل الحضارة

وقد ضرب العلماء فى بيداء التخمين عن أصل اهتداء الناس الى الزراعة حتى وقعوا فيما يشبه السخافات . فقد قال بعضهم مثلاً ، أن الانسان عرف الزراعة لأنه عندما كان يدفن موتاه كان يضع بعض الحبوب مع الميت حتى يأكلها . فكانت هذه الحبوب تنمو لسقوط المطر عليها ، فيعتقد أقارب الميت انه كافأهم بهذا النبات النامى لأنهم خدموه بتزويده فى العالم الآخر بالطعام . وانه بتوالى هذا العمل فقه الانسان الزراعة

ولكن يعترض على هذا الفرض بأن الدفن والعالم الآخر كليهما من مقتضيات الحضارة ، وأن الرجل الذى يعيش فى الغابة لا يدفن ولا يعرف عالماً آخر

وانما عرفت الزراعة فى وادى النيل . وكان النيل نفسه هو المعلم الذى علم المصريين هذه الصناعة . لأنه يأتى كل عام فى فيضانه بما يشبه التقويم الفلكى دقة ونظاماً . فكان اذا فاض ، نبتت الحبوب نباتاً طيباً ، وأثمرت بلا حاجة الى أن ينفق المصرى مجهوداً فى الرى أو الحرث أو عناية أخرى . وكان هذا العمل يتكرر كل سنة فكان لابد للمصريين من أن يتنبهوا الى أن الماء هو أصل الزراعة . ولا يمكن أى نهر آخر فى العالم أن يتعلم الناس منه الزراعة لانه لا يفيض بالنظام والمواظبة اللذين نراهما فى النيل . وغلات الحبوب كالقمح والشعير والذرة يكفى لنباتها الفيضان دون الحاجة الى رى صناعى .

ومتى عرف الانسان الزراعة ، وهدأ فى مكان وترك التجوال فى الغابات والبوادى ، شرع يؤسس مؤسسات الحضارة . لأن هدوءه فى مكان يحتاج الى حكومة تحرس له حقله ، وتمنع اعتداء غيره عليه ، والى بيت يقيم فيه . ثم أن العائلة يتوطد بنيانها ، لان التجوال السابق كان يفككها ويرخى روابطها . ثم ان صناعة البناء تظهر ، ويليها صناعة الآنية من فخار أو خزف . وأيضاً تُستأنس الحيوانات المتوحشة وتعرف رعاية الماشية وصناعة الألبان

وكما أن الطبيعة أنعمت على المصرى بالنيل يعلمهُ الزراعة ويفقههُ فى علاقة الماء بها ، كذلك جفاف المناخ المصرى علمهُ الدين . لأنهُ كان

يترك جثث الموتى فتجف أحياناً دون أن تبلى ، ففطن من ذلك الى أن الموت لا يختم الحياة ، وشرع يساعد الطبيعة على بقاء الجثة بالتحنيط . ومن التحنيط نشأ الاعتقاد بالعالم الثانى ، وظهرت طبقة الكهنة . وكان للنيل دخل آخر فى الدين ، هو انهُ جعل المصرى يقدس الماء ، ويعتقد أنهُ أصل كل شيء حى ، وانهُ يطهر كل شيء . وليست قصة الفيضان ، ونجاة نوح منهُ ، الا احدى نتائج الاعتقاد بفيضان النيل ، وانهُ أصل الحياة كما أثبت ذلك اليوث سمث

هذه هى النظرية التى يقول بها علماء الآثار عن حضارة العالم وانها مشتقة من مصر . فهل التاريخ يؤيدها ؟

لقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يقرأ كتاباً ضخماً للاستاذ برى ، يبلغ ٥٥١ صفحة ، حاول فيه اثبات هذه النظرية من تاريخ مصر والعالم . واعتقادنا أنه نجح فى هذه المحاولة . ولسنا نميل إلى رأيه ونقتنع به لبواعث وطنية . فانه وان كان يجرى فى عروقنا دماء الفراعنة فاننا قد انقطعت بيننا وبينهم صلة اللغة والثقافة وهما أهم مايعمل للتعصب

وليس من السهل تلخيص كتاب برى . فانه يستقرىء الحضارات المختلفة التى ظهرت فى العالم ، ويتتبعها من مصر شرقاً الى سوريا فالعراق فالهند فالصين فجنوب آسيا فاستراليا فأميركا ، ويستخرج منها تلك السمات المصرية التى اتسم بها التاريخ المصرى القديم من لدن فراعنة الأسرة الخامسة . وهو فى استقرائه يثبت أن التدرج الجغرافى فى اتجاه الحضارة المصرية الى الشرق يسير مع التدرج الزمنى . فآخر ما ظهر من آثار الثقافة المصرية مثلاً كان من حيث الزمن فى أميركا ، وهى أنأى الاقاليم عن مصر

وقبل الكلام عن سمات الحضارة المصرية التى نجدها فى سائر حضارات العالم يجب أن نذكر أن العالم منذ داروين صار يثق أكثر مما يجب بالوسط . فان ركناً كبيراً من نظرية داروين قائم على أن الوسط يؤثر فى الحى . وقد تأثر علماء الآثار بهذا الرأى فكانوا يردون الحضارات المتشابهة فى الصين ومصر مثلاً الى أن الوسط فى كلا القطرين متشابه ، وأن عوامل المناخ المتشابهة فيهما كانت كافية لأن تتشابها فى الحضارة والثقافة

ولكن هذا الرأى قد تفيل الآن بالشواهد العديدة التى تنقضه . ففى أميركا مثلاً نجد فى عصر الفتح الأوربى فى اقليم واحد على خط عرض واحد أمتين : أمة متحضرة ، وأخرى متبدية لا تزال تعيش فى الغابات وتقتات بالصيد والجذور . وكذلك الحال فى آسيا . وليس الفرق بين الطائفة المتحضرة والأخرى المتوحشة يرجع الى اختلاف المناخ ، وانما مرجعه الى تقاليد فى الثقافة والحضارة تسلمتها الأمة المتحضرة اما عن غزو واما عن طريق آخر

ولننظر الآن فى سمات الحضارة المصرية الأولى التى انتشرت فى العالم وجعلته ما هو الآن . فالمصريون عرفوا الذهب ولم يكونوا فى الأصل يحملونه للزينة ، وانما نقبوا عنه وصاغوه فى هيئة الودع كما يرى الآن فى المتحف المصرى ، اعتقاداً منهم بأنه يطيل الحياة . أو هو اكسير الحياة . ولا يخفى أن هذه الفكرة لم تمت الا حديثاً . فان المصريين لما شرعوا يدرسون العالم وأذهانهم لا تزال بكراً من الغابة ، لم تلوث بعد بعقيدة أو ثقافة مركبة ، أخذوا ينظرون فى حبة الشعير ، وهى أقدم ماعرف من الغلات ، فرأوها على هيئة عضو التناسل فى المرأة . وهما يشتركان أيضاً فى أنهما مبعث الحياة . ذلك يخرج منه الأطفال ، وهذه تنمو وتخرج منها

السنبلة . فجعلوا الشعيرة رمزاً للحياة أو لطول الحياة . ثم وجدوا الودعة تشبه الشعيرة ، فصارت هى أيضاً رمزاً للحياة . وهى لا تزال كذلك للآن عند الزنوج . ثم عرفوا الذهب ، فصاغوه ودعاً لهذه الغاية أيضاً . وشرعوا من ذلك الوقت ينقبون بهمة عن الذهب ، فخرجوا من مصر وولوا وجوههم شطر الشرق للبحث عن الذهب ، وغرسوا فى أذهان الشرقيين قيمة الذهب فى إطالة الحياة وفى الزينة أيضاً . ولمعظم الأمم المتأخرة فى آسيا تقاليد وتواريخ مأثورة تثبت مجىء « أبناء الشمس » الى أقطارهم لاستخراج الذهب

هذه واحدة . ثم التحنيط فنشا فى مصر أولاً ، والغاية منه أيضاً اطالة الحياة . لأن المصرى القديم ، وهو كما قلنا قد خرج من الغابة وذهنه خلو من اية ثقافة أو أية فكرة علمية ، كان يعتقد فى سذاجة أن الجسم مادام يحتفظ بشكله الخارجى فانه حى حياةً قد تختلف عن حياتنا ولكنها مع ذلك حياةٌ ما . فنشأ من ذلك الاعتقاد بعالم ثان . وماهذا الاعتقاد فى الأصل الا ايمان بطول الحياة أو هو محاولة لاطالتها . ونحن نجد التحنيط قد خرج من مصر حتى بلغ اميركا

فعقيدة العالم الثانى ، وعقيدة الطوفان ، كلتاهما نشأت من عقائد المصريين الأولى . نشأت الأولى من رغبة المصرى فى اطالة الحياة ، ونشأت الثانية من فيضان النيل . وقد عقد اليوث سمث فصلاً وافياً فى تطور هذه العقيدة الثانية حتى انتهت بما نراه فى رواية التوراة

وقد قلنا ان حضارة مصر التى فشت فى العالم هى حضارة الأسرة الخامسة . وهى الأسرة التى ظهرت فيها عبادة « را » إله الشمس ، على عبادة آمون . وانقسمت الأمة المصرية قسمين : امارة دينية ووزارة

سياسية . أى أن الحكومة ازدوجت ، وصار فيها رئيسان ، احدهما دينى والآخر مدنى . وهذا الازدواج فشا فى جميع أنحاء العالم . وهو لايزال الى الآن قائماً فى بعض الأمم . ولعلنا هنا لا نخطىء اذا قلنا أن الخلاف بين قريش والانصار حين قال هؤلاء على أثر وفاة النبى : « منكم الامارة ومنا الوزارة » يرجع الى هذه الثقافة المصرية التى فشت فى الأسرة الخامسة

وعلى كل حال نحن نجد بالاستقراء التاريخى والجغرافى أن « أبناء الشمس » أى المصريين الذين خرجوا من مصر أو غيرهم الذين تسلموا منهم ثقافتهم ، قد انتشروا فى آسيا ونقبوا عن الذهب اكسير الحياة . وأنهم أفشوا بين الناس الاعتقاد بالعالم الثانى وأشاعوا نظام الحكومة المزدوجة : امارة دينية ووزارة سياسية . كما أنهم علموهم صناعة التحنيط

ومما يثبت هذا القول أننا نجد درجات التطور فى مصر ظاهرة ، ولكننا لانجدها كذلك عند الأمم التى اقترضت منها حضارتها وثقافتها . فنحن نعرف مثلاً أن الآلة البخارية توجد فى مصر وفى انجلترا الآن . فاذا نحن فقدنا الوثائق التاريخية وأدعى مصرى أن مصر هى التى أخترعت القاطرة ، لم يشق على انجليزى أن يثبت ضد ذلك بان يرجع الى تطورات القاطرة فى بلاده من عهد انشاء الآلات البخارية التى صنعها سافرى الى واط ثم الى ستيفنسون ، ويوضح أن هذه الآلات كانت ناقصة فتحسنت بالتدريج ، وتطورت حتى بلغت حالتها الحاضرة التى نراها فى مصر وانجلترا معاً . أما نحن فلا نستطيع أن نظهر تطوراً للآلة البخارية فى مصر . فنفهم من ذلك أن القاطرة اخترعت فى انجلترا

وكذلك الحال فى مصر ازاء العالم كله . فنحن نجد الهرم كاملاً فى امريكا ، ظهر فى العصر المسيحى . ولكننا نجده فى مصر قبل المسيح باربعة آلاف سنة ، ولا نجده كاملاً بل ناقصاً ، نشأ أولاً مصطبة ثم هرماً مدرجاً أى مصطبة ثم فوق مصطبة هرماً كاملاً فى الأسرة الرابعة . فمن المعقول انه اذ خرجت حضارة مصر وقت الأسرة الخامسة وتفشت فى العالم ، شيدت الأمم التى تلبست بالحضارة المصرية اهرامها على النمط الأخير . وكذلك الحال أيضاً فى التحنيط ، نشأ فى مصر تجفيفاً بسيطاً ثم ارتقى . ونحن نرى تدرج ارتقائه فى قبور المصريين القدماء . ولكننا نجد التحنيط كاملاً فى أميركا . بل أغرب من ذلك انه ابتدأ كاملاً فى اميركا ثم انحط ، بعكس مانرى فى مصر ، مما يدل على أن القائمين بأمر التحنيط انقرضوا فزالت صناعتهم فى أميركا . ونرى مثل ذلك أيضاً فى التنقيب عن الذهب . فان « أبناء الشمس » الذين ذهبوا الى جنوب آسيا انقرضوا ، فذهبت معهم ثقافتهم ، وكف الأهالى عن البحث عن الذهب ، ولم يبق عندهم سوى تقاليد وأساطير عن أبناء الشمس الذين يطيلون الحياة

وكذلك الحال فى الكتابة . اخترعها المصريون أولاً ، لأنهم لما كانوا أمة زراعية ، كانوا يحتاجون الى تقويم دقيق مازلنا نحن المصريين نعمل به فى الزراعة التى تجرى للآن على التقويم القبطى ، وفى هذا التقويم شهران هما توت وهاتور ، وكلاهما من أرباب آبائنا . فهذه الكتابة خرجت من مصر واتجهت الى الشرق حتى بلغت اميركا . وذلك لأن الثقافة التى خرجت من مصر كانت على تنوعها وحدة مؤتلفة . فالكتابة كانت معروفة فى مصر منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد . ولم تظهر فى الهند

الا حوالى سنة ٧٠٠ ق م . وحضارة اميركا ابتدأت حوالى الميلاد المسيحى وعرفت فى هذا الوقت الكتابة عند الامركيين القدماء

فليس شك الآن أن حضارات العالم كله اشتقت من مصر . ومما يشرح القلب أن دعاة هذه النظرية ليسوا مصريين بل انجليزاً

الحرية الفكرية

الانسان أسير وسطه ، ينطبع فيه أثر بيئته ، وينفعل هو بما يحيط به من العادات والأقوال والنظم الاجتماعية والسياسية . ينشأ صغيراً ، فتؤثر فيه مبادىء التربية التى يتلقنها الى حين يشيخ ويهرم . ويخالط من الأصدقاء من يكتسب منه القدوة الرديئة أو المثل الحسن . ويقرأ من الكتب ما يستهوى فؤاده على الرغم منه ، أو يكرهّه فى أشياء قد كان لا يكرهها لو لم يقرأها . ثم هو يجد نفسه فرداً فى وسط مجموع يضطره الى السير على غراره ، يقسره على أن يلبس لباسه ، ويستطيب طعامه ، ويتكلم لغتهُ ، ويحد ذهنه بحدود معانيها

فمهما ادعى احدنا أنه حر الضمير ، طليق الفكر ، نزيه الرأى ، فهو فى الواقع وفى أغلب أفعاله قد أوعز الى ضميره وأوحى الى فكره . وقد تسرب الغرض على غير وعى منه الى جميع آرائه

فقد يسير أحدنا فى الشارع ليس فى نيته أن يشترى صحيفة ، فيأخذ باعة الصحف فى الصياح أمامه باسماء صحفهم . فلا يأبه لصياحهم أول

مرة ، ولكنه ينتبه المرة الثانية . فاذا كانت المرة الثالثة أو الرابعة لم يجد بداً من أن يشترى الصحيفة

وهكذا الشأن فى سائر اعمالنا . حتى لقد قال لوبون أن خير طرق الاقناع ليس البرهان وانما هو التكرار

فنحن ننفعل بالوسط الذى نعيش فيه لكثرة ماتتكرر أمامنا أحواله ، وتعاودنا آثاره . فالحرية الذهنية قلما توجد مطلقة كاملة عند أى فرد ، وأنما مقدارها نسبى يتناسب وذكاء المرء . فأكثر الناس ذكاء أبعدهم عن الانفعال بالوسط ، وأقلهم لذلك تقليداً ، وأكثرهم ابتكاراً فى شؤون حياته وتفكيره . وأضعف الناس ذكاء أميلهم الى التقليد ، والتأثر بالبيئة ، والجرى على السنن الموضوعة والعرف الفاشى

ثم أن الابتكار يجهد الفكر ، ويكد الذهن ، اكثر من التقليد . ولذلك نجد كثيرين من الناس يكرهون الحرية الفكرية لما يشعرون بالجهد المضنى الذى تتطلبه

فالتقليد راحة وخمول . فى حين أن الحرية جهد ونشاط وبلاء

ولم يتقدم الانسان فى العلوم هذا التقدم الهائل ، إلا لانه تناولها بشىء من الحرية ساعدته على الابتكار فى طرقها وترقيتها . وليس ذلك إلا أن الأغراض التى كانت تؤثر فى العلوم كانت قليلة . وكان النقد مباحاً لانه لم يكن لأحد مصلحة فى ترويج نظرية دون أخرى ، أو ايثار طريقة على أخرى

فتقدم العلوم الكيمائية والطبيعية هذا التقدم الرائع ، انما يعزى الى انبساط علماء هذه العلوم فى الحرية وانطلاقهم فى بحبوحتها . وهم لم يكونوا فى ذلك احراراً تمام الحرية ، فقد ورثوا عبءاً من النظريات لم

يتخلصوا منها الا بالجهد . بل هم لم يتخلصوا منها الى الان تماماً . ولكن علماء العلوم المادية مع ذلك أكثر العلماء حرية فكر ونزاهة رأى

وسبب ذلك ان العلوم لا تمس عواطفنا ، فلسنا نبالى مايحدث فيها من التغيير والتبديل . فقد حدث مثلاً منذ سنوات قليلة أن وقف اينشتين وقال أن نظرية نيوطن فى الجاذبية خطأ . فلم يشعر أحد منا بالحنق عليه أو الطرب له . ولم تضطهده حكومة ، ولم تعاقبه محكمة ، ولم يخسر قرشاً من ماله فى ذلك

والناس يقولون الآن ان العلوم الطبيعية قد تقدمت بينما العلوم الاجتماعية لم تتقدم . وهكذا الشأن فى الحالة الروحية فى الانسان وفى الآداب الثقافية

وهذا حق . ففى الحرب الكبرى مثلاً كانت الجنود تقاتل بوسائل جهنمية أحدثها العلم . ففنيت ملايين من الناس بهذه الوسائل التى لم يعرفها العالم قبلا . والفرق بينها وبين ماكان يستعمل من الوسائل الحربية منذ ألف عام ، هو فرق مابين الرمح والسيف وبين المدفع والغازات السامة . ولكن عندما قعد رجال السياسة الى مائدة الصلح تبين للناس أنه ليس هناك فرق بينهم وبين رجال السياسة منذ ألف عام .

وعلة ذلك أن العلوم الكيمائية تقدمت لأن المشتغلين فيها أحرار فى انتقادها ، لا تشوب اذهانهم الأغراض . فى حين أن العلوم السياسية تشوبها الأغراض من كل ناحية ، والحرية فيها غير مطلقة . فالتقدم فيها يسير ، أو ليس فيها تقدم البتة . ونتيجة ذلك أننا نحارب بوسائل القرن العشرين ، ولكننا يسالم بعضنا بعضاً بوسائل القرن العاشر

فلو وضع أحدنا كتاباً يفضل فيه الاساطيل الهوائية على أساطيل

البحار ، لما اغتاظ أحد منه ولما انعقدت له محكمة لمحاكمته . ولكن لو وضع أحدنا كتاباً فى ذم الاستعمار ، أو فى ايثار نظام الاشتراكية على غيره ، أو فى تفضيل نظام الولايات المتحدة المستقلة على النظام الجمهورى المتمركز ، أو فى نقد الدستور أو نحو ذلك . لوجد الناس حنقاً . وقد تنعقد محكمة لمحاكمته على هذه الوقاحة

فبدهى من ذلك أن العلوم الحربية تتقدم بينما العلوم السياسية تركد

وكذا الحال فى الآداب الثقافية . فهى متصلة بتاريخ الأمة ، وبها تنعقد نخوتها وعزتها . فما هو أن يبدأ الانسان فى نقد هذه الآداب ، حتى يرى هياج العواطف وتأثر النفوس . ولكن الآداب مثل العلوم ، لا تتقدم الا اذا تجردنا أو حاولنا أن نتجرد من هذه العواطف

ثم هذه الحالة الروحية فى الانسان ، ليس ينكر أحد انها قد تأخرت تأخراً هائلاً . وكيف لا تتأخر اذا كنا نمنع الناس من انتقادها ونعاقبهم بالحبس والتشنيع من اجل ذلك . وهل كان علم الكيمياء يتقدم لو كنا نمنع الناس من انتقاده كما نمنعهم من انتقاد الاديان ؟

وهذه الآداب الخلقية فى الناس قد أحيطت بسياج يحول دون نقدها أيضاً . فلو أخذ أحدنا فى نقد تركيب العائلة الراهن ، أو سلطة الاباء على الأبناء ، أو نحو ذلك ، لأقام حوله قيامة من السب والتشهير

وقل مثل ذلك فى الحالة الاجتماعية أو الاقتصادية . فان الثابت المعروف الآن بين العلماء ، انه لم يوجد الى الآن « علم اجتماعى » أو « علم اقتصادى » . وذلك انه ليس فى العالم طبقة من الاحرار تستطيع أن تبحث هذين العلمين وتستقرىء نواميسهما . لأن للناس مصالح فى

الحال الحاضرة ، وهم يمنعون بقوة الرأى العام وقوة المحاكم أية محاولة من أى أحد فى البحث الحر الصادق لهذه الموضوعات

وخلاصة القول أن الانسان مهما ظن نفسه حراً فهو أسير الوسط الذى يعيش فيه . فحريته فى أحسن أوقاتها هى حرية مشوبة بالرق ، لما تركبَ فى النفس البشرية من الانطباع والتأثر بالبيئة الاجتماعية وبالتاريخ الماضى وبحدود اللغة وأثر المناخ وما الى ذلك

فيجب ألا نزيد هذه القيود التى تقيد حرية الانسان عفواً وعلى الرغم منه ، بقيود أخرى نضعها عمداً أو نوكل المحاكم فى تنفيذها وامضائها ، وتثير عواطف الناس عند كل مخالفة لهم فى الرأى أو العادة

فانما التقدم منوط بنزاهة الرأى والجرأة على ارتياء الآراء . وقد كانت هذه ميزة الاغريق علينا . فان أفلاطون مثلاً يتكلم فى كتابه : « الجمهورية » بنزاهة وصراحة وجرأة لا نجد مثلها الآن إلا فيمن يتكلمون فى العلوم الطبيعية . فقد كان ينتقد العائلة والحكومة والزواج وماإليها دون أن يخشى سخط الناس أو حكم محكمة

فما لم نفعل نحن ذلك ، وننظر الى الآداب والعلوم الاجتماعية والسياسية والدينية كما ننظر الى الكيمياء ، فاننا لن نتقدم . ولست أقول أن هذا سهل هين ، وأنه يكفى أن نطلبه حتى نجده . وانما أقول أولاً أنه يجب أن نمنع المحاكم من أن تستعمل سطوتها فى هدم الآراء الجديدة الدينية أو الاجتماعية ، وأن نربى الجمهور على المياسرة والتسامح فى وجود مايصدم عواطفه الموروثة من الآراء . فعلومنا المادية هى الآن علوم القرن العشرين ، بينما سياستنا وعمراننا وآدابنا يعود بعضها الى الوراء نحو الفى أو ثلاثة آلاف عام

التقليد فى الانسان والحيوان

التقليد صفة أو غريزة عامة فى الحيوانات العليا . وبمقدار ارتقاء الحيوان فى سلم التطور تكون قدرته على التقليد . فارقى الحيوانات هو الانسان ، ويليه القرد ، وكلاهما يفوق العالم الحيوانى فى حب التقليد

ولا تكاد الحيوانات الدنيا تفهم معنى التقليد . فالحشرات والعناكب والأسماك ، ومايلى هذه الحيوانات نزولاً فى سلم التطور ، لا تكاد تُبين فى حركاتها وخلقها العام مايدل على انها تقلد فى سلوكها

فيتضح من ذلك أن التقليد صفة راقية ، اخترعته الطبيعة للحيوانات سلاحاً حديثاً تستعين به فى مهام حياتها . وكأننا بذلك نثبت فائدة التقليد للحيوان . فما هذه الفائدة ؟

من لوازم التقليد أن يكون مصحوباً بالاحساس الذى يحس به الشخص المقلَد . فاذا رأينا شخصاً متهيجاً غاضباً ، وقلدناه فى جميع حركاته الواعية وغير الواعية أدى بنا هذا التقليد الى احساس الغضب الذى عند هذا الشخص . واذا رأينا رجلاً يضحك ، فقلدناه فى ضحكه وتضاحكنا ، أدى بنا هذا التضاحك الى ضحك حقيقى وسرور فعلي

نشعر بهما . واذا رأينا أحداً يبكى وتباكينا ، أدى بنا هذا التباكى المدعى الى بكاء فعلى

هذا ولكل حيوان عواطف ، لاتزال خافية علينا مادامت ساكنة ، فاذا اهتاجت تحركت فى جسم الحيوان اعضاء خاصة تدلنا على نوع العاطفة المهتاجة

ولكل عاطفة عضو أو اعضاء تخدمها فى تأدية اغراضها ، وهى فى الوقت نفسه تنم عليها

على أن هناك خاصة غريبة فى جسم الحيوان ، وهى أن تنبيه عضو ما ، أو تحريكه بحيث يمثل تأدية غرض من أغراض العاطفة الموكلة به والمتسلطة عليه ، يؤدى الى تنبيه هذه العاطفة نفسها

فاذا وقفنا منفردين فى غرفتنا ، وعقدنا حاجبينا ، وقبضنا أكفنا ، واستوينا كاننا نتهيأ لقتال ، اجتمع لنا من هذه الحركات ماينبه فينا غريزة القتال . فتشعر للحال بالغضب والغيظ ، كأننا نقاتل بالفعل . وتطفو الى ألسنتنا الفاظ السباب ، ويزداد نشاط رئتينا ، وتتوتر اعصابنا ، كأن هناك قتالاً حقيقياً . ومن هنا ندرك السبب الذى من أجله ينتهى مزاح بعض الناس والحيوانات الى قتال حقيقى . فالصراع والمهارشة يؤديان احياناً الى قتال حقيقى

واذا وقفنا بهيئة خليعة تنافى الوقار أو الآداب ، جالت فى رؤوسنا للحال أفكار سافلة ، وانتبهت فينا عواطف الدركة السفلى . وهلم جرا . فالوظيفة تحرك العضو ، والعضو يحرك الوظيفة . فربما كنا مثلاً لا نشعر بالجوع ، فاذا جلسنا الى المائدة وبسط الطعام ، كان لنا من تحريك اعضائنا تلك الحركة الآلية التى تسبق الطعام ماينبه فينا شهوة الجوع . ومن هنا يقول المثل الفرنسى « شهوة الطعام تأتى عند تناوله »

فالتضاحك كما قلنا يؤدى الى الضحك والسرور ، لأنه يحرك أعضاء عاطفة السرور . والتباكى يؤدى الى البكاء لأنه يحرك أعضاء البكاء ، وبذا ينبه عاطفة الحزن

ومن هنا كان التقليد سلاحاً ينفع ذويه فى الملمات . لأننا اذا رأينا خصمنا وهو يزيد اهتياجاً وغضباً ، كان لنا من تلك الخاصة التى تمكننا من تقليد حركاته أن ندرك احساساته نحونا ، ونستعد لمقاومته ودفعه عنا . فندفعه ونصده لا بحكم العقل والروية بل انصياعاً لوحى الغرائز والعواطف

وقد صار التقليد غريزة نؤديها على غير إرادة منا ، وأحياناً على غير وعى منا . فالطفل الصغير يبكى على الرغم منه اذا رأى أمه قد ضربت أخاه فبكى أمامه . واذا رأينا رجلاً على سطح عال قد اقترب من حافته حتى أشرف على السقوط ، دب فى قلبنا على غير وعى منا رعب ، وسرت فى جسمنا قشعريرة ، كأننا نحن على وشك السقوط والهلاك

فالتقليد وسيلة قد ابتكرتها لنا الطبيعة بغية استكناه نيات أخصامنا . ولكن ليس هذا هو الغاية من التقليد فحسب . فقد اخترعت لنا الطبيعة العقل للتمييز والحكم بين غرائزنا ، ومعرفة النافع والضار فى أحوال معاشنا . ونحن الآن نستعمل هذا العقل فى ماهو أرقى من ذلك — فى درس الفلك والرياضة والفلسفة

وكذلك الحال فى التقليد . فنحن نستعمل هذه الخاصة فى أشياء لا تتناول معاشنا اليومى . فمن ذلك أن التفاهم العادى بين شخص وآخر لا يتم مع وجود اللغة ، إلا بأن يقلد كل منهما الآخر تقليداً غير واع ، فيفهم أحدهما احساس الآخر ويستطيع اجابته . وليس العقل أساس التخاطب ، لأن العقل بطىء لا يسعفنا بضالتنا من الالفاظ . وانما يقوم

التخاطب بالهام الغرائز ، وهذه تنتبه لاننا نقلد من يخاطبنا ، فنحرك على الرغم وعلى غير وعى منا أعضاء تماثل ماتحرك منه . فنحس إحساسه وندرك موقفه بازائنا ونرد عليه بما يلائم مصلحتنا

وأكثر الناس يعزون تقدم الانسان على سائر الحيوانات الى كبر دماغه وقوة عقله ، وهذا خطأ . فاننا لم نصل الى مركزنا الحاضر فى سلم النشوء بهذا فقط . فان قدرتنا على النطق وخفة أيدينا ، ثم قدرتنا على التقليد – كل هذه الخواص قد رفعتنا فوق البهيمية وتعزى اليها انسانيتنا اكثر مما تعزى الى العقل

اذ ماذا ينفع الثور أن يكون له عقل مثل عقلنا ، مادامت يداه لا تستطيعان صنع الآلات ، ومادام لسانه لاينطق ، فيقيد المعانى بألفاظ ، ومادام لا يستطيع التقليد فيسهل عليه التخاطب ؟

وربما لا يخرج عن موضوعنا أن نبين ما للتقليد من القيمة الأدبية والتعليمية . فقد ألف أحد القصصيين الروس الذين أتوا بالمعجزات فى فن القصص قصة تدل على قيمة التقليد . وبطل هذه القصة طبيب أراد أن يقتل خصماً له من غير أن يقع فى جريرته ، فأدعى الجنون ، وقلد حركات المجانين ، حتى اتقن الحيلة وأقنع الناس بجنونه . ثم سنحت له فرصة ، فقضى لبانته وهو فى احدى نوباته المدعاة . فلما قبض عليه وسجن استمر فى ادعاء الجنون ، فنجا بذلك من القصاص . ولكنه جن بالفعل ، لأن تقليده للجنون ، ومداومته على محاكاة المجانين فى حركاتهم واشاراتهم ، أدى به فى النهاية الى أن يحس احساسهم ويجن

ومن هنا كانت فائدة التعليم . فالطفل البليد الطبع الوانى الحركة ، ينشط ويتذكى اذا قسر على النشاط والانتباه . لأنه يحرك أعضاء فى جسمه تنبه فيه هذه الصفات . فهو يقلد حركات النشاط أولاً ، فينتهى

بأن يصير هو نفسه نشيطاً . ومن هنا أيضاً كانت فائدة القدوة الحسنة والمثل الطيب . فقليل الدين يتورع اذا قسر على الصلاة مع الورعين ، وينتهى تورعه المدّعى الى ورع حقيقى . ومما يثبت الدين فى قلوب اصحابه ، أن تكون الصلاة جماعة ، وأن تتكرر جملة مرات فى اليوم بحركات خاصة بها . فتحريك الأعضاء ينبه العاطفة الدينية ، والقدوة الحاصلة بالاجتماع تحرك غريزة التقليد

ويمكننا لو أردنا أن نعمم الآداب بين التلاميذ مثلاً ، أن نقهرهم على مراعاة بعض الحركات التى تصحب الرجل المؤدب ، فينتهى بهم الحال إلى أدب حقيقى

واذا شعرنا بالغيظ من أحد ، وثارت عليه عواطفنا ، أمكننا ان نزيل مابأنفسنا منه بأن نذكر اسمه مبتسمين ، ثم نمدحه بصوت عال ، ونحرك أعضاءنا بحركات الوداد نحوه ، فتنتعش فينا عواطف الميل اليه . وهلم جرا

غير أن فى التقليد مضار كما أن فيه منافع . فالقدوة الرديئة تؤثر فينا على الرغم منا ، وتفت فى خلقنا . واذا اتهم أحد المغفلين أو ضعاف العقول بتهمة ما وكان بريئاً ، ثم اجريت معه مراسم التحقيق ، ومثل ساعة أمام مدير السجن وأخرى أمام وكيل النيابة ثم بين يدى القضاء ، أدت به هذه الحركات الى أن يحسب نفسه انه مجرم حقيقى ، فيعترف بجرم لم يرتكبه . لأن تكرار ذكر الجريمة امامه ، وتقليده لحركات المجرمين فى السجن والمحكمة ونحو ذلك ، وضعفه العقلى الأصلى — كل هذه الأشياء تجسم فى ذهنه صورة جريمة لم يرتكبها فيتوهم انه ارتكبها

ويمكنك أيضاً أن تقول ان حرية الفكر المزعومة وهم ، وأننا كلنا يحاكى بعضنا بعضا . نستعير الأفكار والآراء من حيث لا ندرى . وأن الاستقلال فى الفكر يحتاج الى جهد عظيم قد لا يطيقه غير القلة

مرآة المزاج الانجليزى فى اللغة الانجليزية

اللغة مرآة الأمة التى تنطق بها وتعرب عن المعانى المستكنة فى ضميرها عن سبيلها . وبمقدار شذوذ هذه المعانى أو عمومها يكون شذوذ الالفاظ وعمومها أيضاً . فجميع اللغات مثلاً تشترك فى معان عمومية تؤديها بألفاظ يمكن ترجمتها من أية لغة الى أية لغة أخرى . ولكن هناك من المعانى عند بعض الأمم مالا يمكن ترجمته ، لأنه خاص بالاقليم الذى نبت فيه ، أو لأنه نبع من مزاج الأمة . وقد لا يشترك هذا المزاج وأمزجة الأمم الأخرى

فكلنا مثلاً حاول عبثاً أن يجد لفظة تؤدى معنى الشماتة فى اللغة الانجليزية فلم يقدر . وليس منا من يستطيع ترجمة لفظتى خال وخؤولة الى الانجليزية . ولابد أن كثيرين منا قد تأملوا فى أصل معنى السياسة عند العرب وعلاقتها بسائس الخيل ، واللفظة المقابلة لها فى اللغات الأوربية وعلاقتها بالمدينة : Politics

ويمكن الانسان بتحليل بعض الألفاظ العربية أن يعرف مزاج العرب وأحوال البيئة البدوية التى كانوا يعيشون فيها . فالراعى والرعية مشتقان من تربية الغنم والجمال ، وسياسة الأمة مشتقة من سياسة الخيل ، والفراسة مشتقة من الفرس ، وهلم جرا

وموضوع درسنا الآن ليس البحث فى المعانى العربية ، بل فى المعانى الانجليزية ودلالتها على مزاج الأمة الانجليزية وخلقها ، أو قل عقليتها ونفسيتها

وقد وجدت أن خير طريقة لبلوغ هذه الغاية أن ندرس الألفاظ الانجليزية التى لم يستطع الفرنسيون أن يترجموها الى لغتهم ، فنقلوها بأعيانها كما هى . فإذا أتممنا هذا ، عرجنا على بعض الالفاظ الانجليزية الأخرى فنظرنا فيها

فمن هذه الألفاظ لفظة Character التى نترجمها أحياناً ترجمة مخلة ناقصة بالخلق ، وأقرب منها الى الصحة أن نترجمها بلفظة طبع ، لأن هذا المعنى هو أصل اشتقاقها وبها سميت لذلك حروف الطباعة . والخلق والطبع كلاهما لا يؤدى المعنى الانجليزى على وجه التحقيق . فان الانجليز يقصدون من هذه اللفظة جملة خصال تتركب فى الخلق العظيم أهمها الثبات والاستقامة والدأب فى بلوغ الغاية وعدم التقلب مع الأهواء أو الأحوال . ويمكننا أن نفهم المعنى أكثر اذا روينا حكايتين صغيرتين :

الأولى أن الانجليز ينسبون هذه اللفظة الى ستانلى المكتشف الافريقى العظيم ، لأنه على طول اقامته فى غابات افريقيا وفيافيها وعلى كثرة ما كان يشغله من الأخطار وعلى أن الذين كانوا يحيطون به من البشر لم يكونوا إلا من الهمج والمتوحشين ، لم يهمل يوماً واحداً أن يحلق لحيته كما هى العادة الانجليزية . وقد نشأ ستانلى انجليزياً ثم صار بعد ذلك أميركياً . فمواظبته على حلق لحيته دليل متانة خلقه

وللكاتب الانجليزى ولز قصة مشهورة افتتحها بوصف الخلق أو الطبع الانجليزى . فعرض للقارىء صورة صانع يصنع المركبات الثقيلة المتينة . ويقوم حوله منافسون يصنعون المركبات الخفيفة ويبيعونها

بالاثمان التى تباع بها هذه المركبات الخفيفة . ولكنه لهذا « الطبع » المركب فى مزاجه يأبى أن يغير خطته أو ينزل عن رأيه ، فهو يعتقد أن المركبة المتينة الغالية أنفع للأمة وأصلح لها من هذه المركبات الرخيصة الخفيفة فهو يدأب فى صنعها غير مبال بكسادها

ولاشك فى أن ولز قد غلا فى الوصف ولكن غلوه يبين حقيقة مايعنى الانجليز بلفظة Character التى لم نستطع للآن ترجمتها الى لغتنا كما لم يستطع الفرنسيون

وكلمة أخرى لم يكن الفرنسيين ترجمتها ، هى لفظة Sport فنقلوها بحروفها الى الفرنسية . وقد اصطلحنا نحن على أن نترجمها بلفظة رياضية وهى فى اعتقادى لا تؤدى المعنى الانجليزى كل الأداء . فانها مصبوغة بالجد أكثر منها باللعب . وهى فى الانجليزية مصبوغة باللعب أكثر منها بالجد . وليس بين أمم العالم الآن من يلعب مثل الانجليز ، حتى دخل لفظ « اللعب » عندهم فى جملة معان . فالانصاف والعدل عندهم Fair play أى اللعب النزيه . ومن مات عندهم أو قتل فتحمل الموت أو القتل بجلد وشهامة فقد مات لاعباً To die game .

ومن الالفاظ الانجليزية التى اصطنعها الفرنسيون لفظة Humour وهى تعنى فى العربية شيئاً يقرب من الفكاهة ، أو قل الفكاهة العالية . وهذا يدل على أن الانكليز أكثر الناس فى إيراد الفكاهة . وحسبك أن تعرف أن اكبرّ كاتب وفيلسوف انجليزى الآن هو برنارد شو وهو كاتب فكاهى . وكان مارك توين من أكبر كتاب الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو أيضاً كاتب فكاهى . ولهذين الكاتبين غضبات فى الحق ينسيان فيها كل فكاهة

وأيضاً لفظة Home التى تقارب معنى بيت فى العربية (وذلك اذا اعتبرنا أن البيت هو المنزل وأهله) ليس لها ما يقابلها فى الفرنسية . والرابطة البيتية كبيرة جداً فى انجلترا . والبيت بهذا المعنى عبارة عن منزل له حديقة ، يتسم اثاثه بالرفاهية ، يوجد بغرفة على الدوام موقد نار للاصطلاء ، ويشرب فيه الشاي فى أي وقت ، وتجتمع العائلة فى احدى غرفه كل ليلة للمسامرة أو المطالعة . وبالحديقة كلب ، وبالمنزل قط ، والزوج يعشق زوجته عشقاً صحيحاً لأنه لم يتزوجها لمال أو جاه

هذا هو الجو الذى اتشممه من لفظة Home ولذلك يشق على الانسان ترجمتها لأية لغة

وقد يمكنك أن تضيف الى هذه الألفاظ الأربعة لفظة خامسة لم يستطع الفرنسيون ولا نحن ترجمتها ، وهى لفظة Gentleman . فان الانجليز أنفسهم لا يعرفون جملة المعانى التى تنطوى عليها هذه اللفظة . وهى تعنى فى اعتقادى رجلاً شهماً ، صحيح الجسم ، مقبول الملامح ، يعرف آداب اللياقة ، لا يكثر من الدرس ولا من اللعب ولا يتدنى للربح

ولننظر الآن فى بعض الفاظ انجليزية اخرى تدل على المزاج . الانجليزى . فالانجليز يحبون اللحم ، وهم أكثر الأمم أكلاً للحم . والحق يقال أنه ليس فى العالم لحم يؤكل مثل ذاك الذى يباع فى لندن . فليس عجباً أن يجعلوا لفظة Meat وهي تدل فى الأصل على الطعام كله بانواعه مقصورة فى المعنى على احسن مايحبونه فى الطعام وهو اللحم

والانجليز مثل الاغريق القدماء يكرهون الاجانب ، أو قل يحتقرونهم . فقد كان الاغريق يسمون كل اجنبى بربرياً . والانجليزى يشعر بهذا الشعور الاغريقى ولكنه يتلطف فى التعبير . وكثيراً ما كنت

أتعجب للمزاج الانجليزى وأنا بلندن ، عندما كنت ألاق أحداً من أبناء لندن اذا أراد أن يلاطفنى ويؤانسنى قال لى أنى أشبه الانجليز . كأنه من العار على أن أشبه المصريين

وفى اللغة الانجليزية مايدل على ذلك . فان لفظة Outlandish تعنى فى الأصل « غريب » فقط ، وهى الآن تدل على شىء غريب بعيد عن الذوق والكياسة .

والانجليز أبعد الناس عن التفتح والمؤانسة . فاذا جلس اثنان من الفرنسيين أو الالمان معاً فى غرفة وكانا غريبين ، لم يمض عليهما وقت طويل قبل أن يتكلما . ولكن اذا كان الجالسان انجليزيين فقد ينقضى نهار كامل دون أن يفتح أحدهما فاه بحديث للآخر . لذلك يجب الا نستغرب أن يقترض الانجليز لفظة Rapprochement من الفرنسيين لكى تؤدى لهم معنى التقرب والمؤانسة الذى ينافى مزاجهم ، ولم توجد لمعناه لفظة فى لغتهم

ومن خصال الانجليز التحفظ ، والامساك عن الكلام ، وكراهة اللغو والمترادفات ، والتبسط فى الألفاظ . فالاسلوب الانجليزى هو بلاشك الاسلوب التلغرافى . ولذلك يجب الا نعجب من أن لفظة Voluble وهى تعنى فى الأصل التدفق فى الكلام ، قد صارت تعنى الآن الهذر والثرثرة

فمن هذا البحث الصغير يتبين للقارىء أن اللغة تدل على مزاج الأمة التى تتكلم بها . وأعظم مايدل فيها على ذلك هو تلك الالفاظ التى لايمكن ترجمتها لأنها تكون عندئذ صورة للخصائص التى اختصت بها الأمة وامتازت بها من غيرها . ومن اللغة الانجليزية نفهم ان الانجليز يحبون اللعب كثيراً ، كما يحبون الثبات والدأب فى العمل الذى يمارسه

الانسان ، ويحبون الفكاهة واللطف فى المعاملة . وهم أيضاً يحبون بيوتهم ، ويستريئون اللحم أكثر من أى طعام آخر ، ويحتقرون الأجانب ، ويتحفظون فى الكلام أو الكتابة ، ويمسكون عن الاسهاب فى الأداء

الانجليزى وجسمه

أظن ان الانجليز ، على الرغم من خصومتنا معهم ، وشدة أسفافهم فى استغلال ضعفنا ، أرقى أمة موجودة الآن فى العالم

وأقول هذا القول وأنا اتحفظ ببعض الشبه والشكوك . فقد يكون النروجيون أرقى أمة . ولديهم على أى حال دليل قوى من دلائل الرقى ، فقد جاء فى احصاء مطبوعات العالم أن مؤلفاتهم فى العام الأسبق أربت فى العدد على مؤلفات الألمان . والالمان اكثر أمم العالم تأليفاً . وهذا على الرغم من أن عدد سكان نروج أقل من سدس عدد سكان المانيا

ولكن كثرة مدارسة الكتب ليست سوى دليل واحد من دلائل الرقى . وهو مع ذلك دليل ضعيف . فاننا لانعرف ماهية هذه الكتب . وكثيراً مايكون تأليف الكتاب دليل الغباوة . وحسبك أن تعرف ان أحد أهالى دمشق ألف كتاباً منذ شهرين يقول فيه بتكفير المسلمين لأنهم لا يلبسون العمائم

فلنترك اذن نروج لجهلنا بها ، ولننظر ثانياً فى الانجليز . فعند هؤلاء الناس جملة صنوف من الرقى الاجتماعى . فحكوماتهم فى بلادهم أرقى الحكومات فى العالم . ولا تنس أن لهم فى بلادهم حكومات لا حكومة

واحدة ، فان مجالسهم البلدية تدير الشئون الداخلية ، وكل منها مستقل عن الآخر . ومن هذه المجالس يشرف مجلس لندن على مصالح نحو ٧ ملايين نفس ولا تقل ميزانيته عن ميزانية الحكومة المصرية . والبرلمان الانجليزى يسيطر على هذه الحكومات ، ولكنه لا يمارس هذه السيطرة ، ولا يعارض نزعة الأمة فى هذا الاستقلال المدنى . وقد يقرأ الناس اخبار حكومة فرنسا مثلاً ويقرنونها الى اخبار حكومة انجلترا ، أو يظنون نظام كل منهما مطابقاً للآخر . ولكن شتان بين الاثنين . فان باريس تحكم جميع المدن الفرنسية ، تعين لها جميع موظفيها أو أهم موظفيها . أما لندن فلا شأن لها بما تفعله لفربول . لأن فى لفربول مجلساً هو برلمان المدينة ، يعين شرطتها ، وينظم مدارسها ، وينظر فى صيانتها ، ويدير مستشفياتها وما الى ذاك . وليس للحكومة المركزية فى لندن الا الاشراف الذى لا تزيد قيمته احياناً عن تقديم النصيحة

ثم انظر الى نظام العائلة تجد أنه ليس فى العالم كتلة بشرية أكثر تماسكاً من هذه العائلة الانجليزية . وحسبك أن زوجين أرادا الطلاق من مدة قريبة فى انجلترا ، فلم يجدا مايسوغان به هذا الطلب امام القاضى إلا بان ادعى كل منهما بأن الآخر قد ارتكب جريمة الزنا ، وقدم كل منهما خطابات مزورة تدل على صحة هذه التهمة

ويمكنك أن تتناول سائر الشئون الاجتماعية فى انجلترا ، أو تقابلها بما يماثلها عند الأمم الأخرى ، تجد تفوق الانجليز ، أو على الأقل عدم انحطاطهم عن غيرهم فيها

ولكن هذه الشئون الاجتماعية كلها لاتصح مقياساً للرقى ، فان مجال الشك فيها واسع . فاننا للآن لا نعرف ما هو أصلح نظام للعائلة ، وما

أنفع نظام للحكومة أو للهيئة الاجتماعية . فقد تكون الاشتراكية أرقى من النظم الراهنة . بل هؤلاء الروس يقولون أن الشيوعية أفضل الأنظمة . وليس عندنا مايدل أيضاً على أن تماسك العائلة وعدم تيسير الطلاق أنفع للناس من ترخيص الطلاق

والحقيقة أن علم الاجتماع لايزال علماً ناقصاً ، بل هو ليس علماً للآن . فانه لايزال كثير الاشتباك بالتقاليد الدينية والتاريخية والحكومية ، بحيث لايمكن التبسط فى شرح احدى نظرياته دون أن تمتد يد القانون وتمنع البحث الطليق . وحسبك أن تعرف أننا لسنا مطلقين فى أن نتكلم عن فوائد الشيوعية أو ضررها ، فأن حكومتنا تمنعنا من ذلك . ولسنا أيضاً أحراراً فى الكلام عن ضرر التزوج بأربع أو فائدته ، فان التقاليد الدينية تمنعنا من ذلك . وهلم جرا

ولو كان الناس يتحرجون من البحث فى علم الكيمياء أو الطب أو الهندسة مثلما يتحرجون الآن من الكلام فى علم الاجتماع لما تقدمت هذه العلوم

فلنترك اذن الشئون الاجتماعية ولننظر فى معيار آخر نعاير به تفوق الانجليز .

وأصدق هذه المعايير هو ماينطبق على شخص الانجليزى بالذات من حيث الجسم والعقل والخلق . ولنذكر انه اذا كان ثم نتيجة حسنة لأى نظام اجتماعى كائناً ماكان ، فانما تكون هذه النتيجة فى الجسم والعقل والخلق . فان بين الحيوان ماهو أصدق اخلاصاً لنظام العائلة منا كما هو الحال بين الحمام . وما هو اقوى فى الروح الاجتماعية منا كما هو الحال بين بعض الغزلان . ولكن ليس بينهما مايفوقنا فى العقل أو الخلق أو الجسم

فهل يفوق الانجليزى سائر البشر فى هذه الأشياء ؟

لست أشك فى أن الخلق الانجليزى يمتاز عن سائر الاخلاق بالثبات فى العمل والدأب فى بلوغ القصد وحكم الشهوات والتبصر للمستقبل . وكل هذه صفات قد اشتهرت عن الانجليز ، وهى دليل الأعصاب المتينة . وأساس الاخلاق هو الاعصاب . فاذا قلنا مثلاً ان هذا الشخص أو ذاك يثبت فى عمله عنينا بذلك أن أعصابه لا تتعب بسرعة بل تتحمل المداومة على الشغل والدأب فيه . واذا قلنا أن هذا الرجل اهوائى كثير التقلب عنينا بذلك انه ضعيف الاعصاب لايقوى على تحمل سأم العمل على وتيرة واحدة . وهلم جرا

أما من حيث العقل ، فقد يفوق الألمانى الانجليزى وقد لا يفوقه . ولنذكر أن الانجليز المان أو هم فرع من الجيل الالمانى . بل قد يكونون « جرماناً » أكثر من الالمان ، فان هؤلاء قد تسرب اليهم دم آسيوى كثير كما هو ظاهر فى كثرة مايرى عندهم من الرؤوس المستديرة المغولية الأصل

أما من حيث الجسم ، فاننا يمكننا أن نعاير تفوقه بثلاثة أشياء : وهى الجمال والصحة والقامة . ولنذكر أولاً ان الانجليز أقل الأمم فى البطون المستكرشة ، وهم أكره مايكونون للسمن . وهم ان لم يكونوا أطول الأمم قامة ، فهم من أطولهم وأضمرهم بطناً . أما من حيث الجمال فلست أعرف نساء يشبهن فى جلال الطلعة ، وان لم يكن فى الفتنة نساء الانجليز من الطبقة الراقية . أما من حيث جمال الوجه والقامة فى الرحال فيكفى شهادة على جمال الانجليز أن الخياطين فى جميع البلدان صاروا يقيسون على غرارهم ويرسمون صورهم فى نماذج التفصيل

ولو اتبعت غريزتى وبصيرتى لقلت أن عناية الانجليز باجسامهم من أكبر الأدلة على رقيهم . فهم أكثر الدول رياضة واستحماماً وتنزهاً . وهم أيضاً من اكثر الأمم سياحة وضرباً فى الأرض . فهم بذلك أميل الناس الى اكتساب التجارب . والتجارب فى النهاية الربح الحقيقى لكل انسان فى هذا العالم وقد صدق نيتشه عندما قال : « كل مالا يقتلنى يقوينى » ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن جميع التجارب مفيدة مادامت لا تؤذينا اذى يقضى علينا

وميزة أخرى فى المزاج الانجليزى . وهى دليل شىء من التفوق فى الاعصاب أو العقل أو أى شىء آخر ، هى مانجده من ميله الدائم الى الاعتدال والبعد عن الغلو والاسراف . فهو دائم التحفظ والاقتصاد . وهو فى ذلك يشبه الاغريق القدماء الذين كانوا يتجنبون الغلو

وبعد فقد جالت برأسى هذه الخواطر ، وأنا اقرأ اعلاناً فى التيمس لاحدى الشركات الانجليزية تطلب فيه : « رجلاً انجليزياً طرازياً » . أى يعتبر مثالاً لهيئة الانجليز . واشترطت فيه أن يكون : « شاباً طوالاً خفيف اللون » وذلك لكى تستخدمه بتصويره فى اعلاناتها المختلفة .

وقد أذكرنى هذا الاعلان اعلاناً آخر قرأته مدة الحرب لسيدة أيم انجليزية تطلب فيه رجلاً انجليزياً طوالا لكى يتزوجها

فالانجليز مثل الاغريق القدماء يطلبون الجمال والصحة ويجهرون بهذا الطلب . وهم لو لم تكن هاتان الصفتان فيهم لصارتا فيهم ، لانهم يطلبونهما . ومن نشد شيئاً وداوم فى طلبه لم يلبث أن يحققه

بعض الرذائل فى ضوء التطور

نظرية التطور مفتاح سحرى نفتح به مايستغلق علينا من نزوات الطبيعة البشرية ونزغاتها . ففى كل منا عرق بل عروق مستسرة ، تمت الى آبائنا الوحوش القديمة التى عاشت القرون الطويلة فى ظلام الغابة تحوطها الضوارى والافاعى فتأوى منها الى الاشجار أو الكهوف

ومازلنا فى أحلامنا وسرائر نفوسنا نحمل قلوب هذه الوحوش القديمة فى صدورنا . فنحن نخاف الظلام ونحس كأنه يخبىء لنا الجن والعفاريت . وماهذه الجن والعفاريت سوى الضوارى والافاعى التى كانت تكمن لابائنا وتفترسهم فى جنح الظلام

ومازلنا نحلم أو بالاحرى يحلم صغارنا انهم يهوون من علٍ ، ويوشكون أن يهلكوا . ولكنهم قبيل الصدمة الأخيرة يستيقظون وقد أفاقوا من هذه الغشية . وليس هذا الحلم سوى الذاكرة القديمة حين كان أباؤنا يأوون الى أغصان الاشجار فينامون حريصين على ألا يقعوا . ولعلهم كان يقعون ، ولكن اليقظة كانت تعاودهم قبل ساعة الخطر فكانوا يتعلقون بغصن ينجيهم . وانطبعت هذه الذكريات المؤلمة فى عقولهم الباطنة حتى أورثوها لنا فى أحلامنا

وليس شك فى أن أحلامنا تمثل يقظة أبائنا . فنحن فى الحلم نتكلم بلغة الأباء ونستعمل رموزهم ، لأن العقل الباطن هو أداة الاحلام ، وهو عقل الجدود القدماء

ولكننا ذكرنا مثالين من تراث هؤلاء الجدود ، يجب أن نقف عندهما لنرى عبرتهما فى التطور . فقد قلنا اننا نخاف الظلام ، وأننا نحلم بالسقوط . ولكن مما يجب الانتباه له أن الصبيان ، بل الاطفال ، أكثر تعرضاً لهذا الحلم ولهذا الخوف ، من البالغين . وهذه الحقيقة تتسق ونظرية التطور . فالجنين يختصر فى الأشهر التسعة التي يقضيها فى الرحم تطور الانسان من عهد ظهور الحياة على الأرض الى أن يصير انساناً سوياً فيكون أولا خلية فردة ، ثم يكبر الى أن تصير له خياشيم كالسمك ، ثم يتخذ هيئة البرمائيات كالضفادع ، ثم يقف هنيهة بين الزواحف واللبونات ، فيكون له ذنب وشعر ، ثم يدخل فى طور الانسانية . وهو انما يسلك هذه السبيل لان له ذاكرة خفية ، أو عقل باطن ، يحتفظ بتاريخ الانسان منذ بدء نشوئه الى الآن

ولكن اذا كان للجنين ذاكرة تلهمه بأن ينمو على طريقة بعينها ، فان للطفل أو للصبى ذاكرة خفية تبعث فى نفسه غرائز الجدود الأقربين عادة والابعدين أحياناً . فالطفل يمشى على أربع ، ويولد وذراعاه فى طول ساقيه شأن الحيوان القديم الذى خرجنا منه ، ثم يخرج من هذا الطور ويستوى على ساقيه ، وتتأخر ذراعاه عن النمو بالنسبة الى ساقيه . وهو يبقى مدة غير قصيرة يحب التعلق والتسلق ، ويلذ له السير على الحافات الدقيقة ونحو ذلك ، مما يرجع به الى غرائز الآباء الأقدمين الذين كانوا يتحصنون أغلب وقتهم على الأشجار

وبعد هذه المقدمة الصغيرة ندخل فى موضوع هذا الفصل ، وهو البحث عن أصل رديلة اللواط التى نراها فاشية بين بعض الناس ، ونريد أن ننظر اليها فى ضوء التطور

فليس شك فى أن الصبيان بل الأطفال يشعرون أحياناً بدافع الغريزة الجنسية قبل سن البلوغ بأعوام كثيرة . وأحياناً نحتاج الى أن نضرب الطفل لنكفه عن العبث بأعضائه التناسلية . أما الصبيان فليس ينكر أنهم يفكرون كثيراً فى أعضائهم التناسلية ، بل هم يشعرون ببعض اللذة فى ايقاظ هذه الغريزة وهم أحياناً فى مابينهم يختلطون اختلاطاً يقصدون منه اللذة ويجدون هذه اللذة فى مانسميه اللواط

فكيف نشأت هذه الغريزة المجنونة ؟

اذا نحن رجعنا الى نظرية التطور ، وتذكرنا ان الطفل ثم الصبى كل منهما يختصر فى نفسه طوراً أو أطواراً مرت بأسلاف الانسان القدماء ، جاز لنا أن نفتش عن أصل هذه الغريزة فى هؤلاء الاسلاف

ولكن قبل ذلك يجب أن نذكر أنه ليس كل صبى يفعل ذلك ، لأنه وان كانت بذور الغريزة كامنة فى نفس جميع الصبيان الا أنها قوية فى بعضهم ضعيفة فى آخرين . فقد يجتاز الصبى بهذا الطور من حياته ويدخل فى طور الشباب دون أن يشعر بها الا ضعيفة لا يأبه لها ولا تبلغ من نفسه سوى الاستحسان لجمال صبى آخر يلعب معه

ولابد أن القارىء قد لحظ أن خصيتى الديك تبقيان داخل جسمه ، ولاتخرجان منه وتتدليان على نحو مانرى فى الحيوان اللبون . ولابد أيضاً انه لحظ ان للدجاجة فتحة واحدة من خلف ، وان التلاقيح يتم بينها وبين الديك عن سبيل هذه الفتحة ، بحيث يلى بطن الديك ظهر الدجاجة . والآن اذا قلنا ان بعض الأطفال يولدون واحدى خصيتهم لاتزال داخل

اجسامهم ، بل احياناً تبقى الخصيتان كلتاهما داخل الجسم ، أفلسنا نفهم من ذلك أن هؤلاء الاطفال قد ساروا سيرة الجدود القدماء من برمائيات وزواحف ؟

فهذه ردة حدثت فى تكوين الخصيتين ، رجع فيها الطفل الى الوراء بمعنى أن ذاكرة الجدود القدماء كانت أقوى فيه من ذاكرة التطور الجديد الذى قضى أن تخرج الخصيتان وتتدليان من الجسم ، على نحو مانرى فى اللبونات . وهذه الردة كثيرة الحدوث فى الانسان . وربما كان أكثرها شيوعاً ذلك الشعر الكثيف الذى يكسو أبدان الرجال والنساء احياناً . ونحن نسمى السمات القديمة اذا ظهرت شاذة فى الانسان « ردّة » كالشعر مثلاً . ولكنها اذا ظهرت فيه وعمت جميع الافراد تقريباً لم نطلق عليها اسم الردة . ففى كل منا مثلاً « زائدة دودية » تظهر فى جميع الناس ، وهى أثر حيوانى قديم لا فائدة لنا منه . فهى لذلك ليست شاذة وليست « ردّة »

ولكن الردة كما تحدث فى اعضاء الجسم كذلك تحدث فى غرائز النفس . فالطفل الذى يولد وخصيتاه فى باطنه على طريقة الطيور والزواحف والبرمائيات ، قد نجد بازائه طفلاً يولد فاذا صار صبياً استيقظت فيه غرائز هذه الحيوانات القديمة التى يمت اليها كل منا بنسب فى نسيج عقله وجسمه معاً . فالصبى يستحسن الاختلاط من خلف بقوة هذه الذاكرة القديمة وهذه الغريزة المماتة . فهو يوقظ فى نفسه غريزة كان يجب أن تموت ولكنه يحييها ، فاذا عاونته الظروف استحييت وطاوعته وقويت وصار لها فى الاعصاب مسالك تتأدى بها ، وفيها تلك الشهوة التى دمغناها بصفة البهيمية لانها هى فى الحقيقة كذلك ردة بهيمية الى البهائم القديمة التى خرجنا منها

والعادة انه اذا كان الوسط الذى يعيش فيه الصبى يسمح له بالزواج عند سن البلوغ أو بُعيده ، فان تلك الغريزة البهيمية التى كانت قد انتبهت فيه تُكبت وتُكتم حيث تطغى عليها الغريزة الانسانية باستحسان المرأة . ولكن اذا كانت الظروف لا تؤاتى الفرد على الزواج أو التعارف الجنسى الصحيح فان تلك الغريزة تبقى الى طور الشباب ، بل قد تتعداه الى الكهولة ، فتتأصل عندئذ فى النفس وتصبغها بصبغة حيوانية قديمة يعسر تغليب الصبغة الانسانية عليها

وذلك لأن الغريزة الجنسية عندما لاتجد مخرجاً انسانياً لها تعود الى مخارجها القديمة فتنكفىء الى اللواط . ومن هنا انتشار هذه العادة بين جموع من يحرمون من النساء كالرهبان والجنود . فالانسان وهو ينتقل من الطفل الى الصبى الى الشاب ، تتجدد عاداته ينسخ منها الجديدُ القديم . واذا لم يكن جديد بقى القديم . فاذا لم يجد الشاب المرأة ، رجع الى عادته وهو صبى ، فيستحسن الصبيان امثاله . فاذا بقى على ذلك مدة تأصلت فيه العادة فيشق عليه عندئذ الاقلاع عنها . فالشاب الذى ينغمس فى اللواط ، هو كالصبى الذى يروح ويغدو وهو لايزال عالقاً بثدى أمه يرضعه . فان الصبى قد عدا طور الرضاع ولكنه وجد تشجيعاً عليه فثبت فيه . والشاب عدا هذا الطور الصبيانى ، ولكنه لما حرم من الاختلاط الجنسى الصحيح استبقى لنفسه هذه الغريزة القديمة ، ينفّس بها عن الشهوة الجنسية الملحّة

فكيف اذن نعالج الرجل أو الشاب من هذه العادة الصبيانية ؟ نعالجه بان نظهره على حقائق غرائزه ، ونخبره بأن غريزة الصبى هى غريزة الحيوانات السابقة ذوات المخرج الفرد كالزواحف والبرمائيات . فكما أن

الجنين يمثل السمكة فى أحد اطواره ، وكما أن الطفل يمشى على اربع ، كذلك الصبى يمثل تلك الحيوانات القديمة فى طريقة التلاقح . ولكنه مادام قد دخل فى طور الشباب . فقد استكمل انسانيته ، ويجب أن يسلك المسلك الانسانى لهذه الغريزة

ان الجسم الانسانى بازاء كفاياته القديمة المنسوخة منها والجديدة الطارئة عليه ، أشبه شيء برجل قد تعلم فى صباه الطعن بالحراب ، ثم سمع عن القوس فتعلمه . ثم جدَّ اختراع البندقية فتعلم تسديدها . فهو اذا قاتل عمد الى آخر أسلحته وأقواها وهى البندقية . فاذا تلفت هذه انكفأ الى القوس ، فاذا تلفت هذه ايضاً انكفأ اخيراً الى الحربة . فالرجل الذى يحرم من النساء يعود صبياً فى غريزته الجنسية فيحب الصبيان ، لأن اللواط سلاح قديم ، كان الجسم يدفع به عنه الحاح الشهوة . ولكن ثم اعتباراً آخر يتسق مع تشبيهنا . وهو انه اذا كان هذا الرجل الذى فرضناه قد طالت مدة استعماله للقوس دون الحربة أو البندقية فانه فى القتال يؤثرها على كلا هذين السلاحين ، لأن طول الممارسة يورد العادة التى هى أشبه بطبيعة ثانية . فاذا شب الصبى الى المراهقة وهو يستحسن الصبيان ، وألف عادة اللواط واكب عليها ، شق عليه عندئذ ان يخرج منها ولو عرضت له نساء

ولننظر الآن الى العادة السرية « جلد عميرة » فى ضوء الشرح السابق . فاننا نلاحظ أن الاطفال والصبيان يلذ لهم مس اعضائهم التناسلية ومسحها ، ونرى من واجبنا أن نزجرهم ونكفهم عن ذلك . فاذا صار الصبى الى سن المراهقة ، ووجد للشهوة سبيلاً طبيعياً تنفرج اليه فذاك ، والا فهو عائد الى الطريقة التى ألهمته اياها غريزته وهى

صبى . فيعود عندئذ الى المس والمسح ويعرف من ذلك « جلد عميرة » وتنتظم له من ذلك عادة ملحة لها اوقاتها

وانما الانسان فى غرائزه شبيه بالبصلة تتراكب الغرائز عليه طبقة بعد طبقة . فالطبقات العليا هى الحديثة والسفلى هى القديمة . والحديثة تتغلب على القديمة ، مادامت الظروف عادية . ولكن اذا عوكس الفرد فى غرائزه الجديدة ، انكفأ الى غرائزه القديمة . لان فى الجسم قوة تندفع الى الخروج . فاذا وجدت أبواب الغرائز الجديدة مقفلة دونها عمدت الى الابواب القديمة ففتحتها . وبعبارة أخرى نقول : اذا وجد الفرد ان باب التعارف الجنسى بالطريقة الانسانية مقفل ، عمد الى باب الطريقة البهيمية طريقة الزواحف وهى اللواط . وايضاً اذا وجد الشاب ان هذه الطريقة القديمة قد اقفلت دونه ايضاً عمد الى طريقة الصبا طريقة المس والمسح وهى جلد عميرة

الأديب : أمير أم عبد ؟

لما زال استقلال الاغريق وتسلط الرومانيون عليهم ، نزل الأدب من مركز الامارة الى مركز العبودية . فقد كان أدباء الأغريق أصحاب الفلسفات وواضعو الدرامات ، ينظرون الى الشعب نظر الملك الى رعيته ، يبحثون فى طرق اصلاحه وتنظيم حكوماته ورفع مستوى اخلاقه والسير به نحو الرقى . تقرأ ارسطوطاليس أو افلاطون فتجد أميراً مهموماً بهموم رعيته ، يريد أن تسموا أخلاقهم وتنتظم حكوماتهم ، ولست تجد فيهما العبد الذى يتملقهم ويخدعهم ويمتدح نقائصهم

فلما تسلط الرومانيون على الأغريق ، أخذوا يستطرفون اللغة الاغريقية ، ويتنافسون فى تعليمها لاولادهم . فصاروا يكثرون من اقتناء عبيد الاغريق لهذا الغرض ، ويسلمونهم اولادهم . فكان العبد الاغريقى يقف من هؤلاء الأولاد موقف المعلم ، يستمعون لاقواله وينتصحون بنصحائه ، ولكن كما نسمع نحن لنصائح السائق حين يختار الطريق القريب ، أو حين نسترشد برأى الحمال الذى يحمل حقائبنا للقطار . نطيعهما كليهما طاعة وقتية ، وفى سريرة نفوسنا أننا أرفع منهما . وكان لهذه الحالة اثرها فى المعلم نفسه ، لانه وجد أنه يجب عليه أن يسر ،

ويقف من أسياده موقف المهرج الذى يضحكهم ، لا موقف الاستاذ الذى يعلمهم ويؤنبهم

ثم جاءت القرون الوسطى ، التى استوى فيها العرب والافرنج أو كادوا يستوون ، من حيث نظام الحكومة الاستبدادية التي يسيطر عليها رئيس دينى هو البابا أو الخليفة ، ومن حيث الأدب ايضاً . فقد انقسم الادب قسمين عظيمين : أحدهما يعالج الدين والآخر يعالج الحياة .

فأما هذا الذى يعالج الحياة ، فانه لم يرتفع الى مركز الامارة الذى كان لأدباء الاغريق القدماء . بل نزل الى مركز العبودية الذى انحدر اليه الموالى الاغريق حين كانوا يعلمون صبيان الرومانيين

ففى بغداد نجد أيام الدولة العباسية عدداً كبيراً من الموالى ، اى العبيد ، اصطنعوا الأدب وقضوا أعمارهم فى امتداح أمرائهم واطراء مافيهم من صفات . كما تجد ذلك ايضاً عند امراء ايطاليا ، حين كان لكل امير شاعر يشيد بذكره وينوه بمناقبه . ومضي الادباء على ذلك يعتقدون أن مهمتهم مقصورة على سرور الأمراء ، حتى اذا تخلص الأدب من رعاية الأمير بعض التخلص ، صار الأديب يشغل نفسه بغير امتداح الامراء والاغنياء . ولكنه بقى مع ذلك يحسب أن مهمته هى سرور القارىء ولذته وليست فائدته . يجرى فى ذلك على مأثور الادباء من الموالى قبله . فنشأت طبقة من المهرجين ، مثل الحريرى والهمذانى ، يعملون بالالفاظ مايعمله المشعوذ والمهرج بالحركات ، حين يطيف بهما الناس ويضحكون من تهريجهما

ثم قامت النهضة الاوربية تستوحى أمراء الادب القدماء ، وتنفض عن نفسها غبار العبيد ، حتي صار الأدب الاوربى الحديث يتسم بسمة الامارة . لا يحبو اليك المؤلف على أربع ، يتصاغر لك أو يهرج أمامك

لكى تضحك ، وانما هو يسومك درس هذا العالم بما يوجعك احياناً .
وقد تجد أنت لذتك فى هذا الايجاع ، لانه بذلك يفتح بصيرتك ويبسط
وعيك لهذا الكون

ونحن هنا فى مصر ، بل فى العالم العربى ، لايزال بيننا طبقة من الادباء
يؤثرون مركز العبيد على مركز الامراء . يتظرفون أحياناً مثل الرافعى
والمازنى ، وأحياناً يهرجون . قصاراهم أن يقولوا « فحسب » فى مكان
« فقط » أو أن ينقلوا عبارة فخمة من الجرجانى أو من غير الجرجانى ،
يدسونها فى ثنايا ألفاظهم ، يحسبون أن مهمتهم مقصورة على سرور
القارىء

ولست فى ذلك أنكر فائدة التأنق أحياناً ، وان كنت أعرف أن
الكأس من الذهب أجمل مايكون اذا لم يكن عليه نقش . وأن الجسم
الجميل أفتن مايكون اذا تجرد من الثياب . وأن الثوب الحريرى لا يحتاج
الى توشية وتطريز . وذلك لأنى لا أجهل أن الذهب والحرير ليسا فى
وسع كل أحد اقتناؤهما ، وانه ليس بين النساء من نستجملها عارية الا
واحدة أو اثنتان فى المائة . فنحن فى حاجة من وقت لآخر الى التأنق لأننا
لا نطيق البساطة . فان الشىء البسيط لا يكون جميلاً الا اذا كان من
أرفع مادة ومن أعلى طراز . وليست تسعفنا اللغة على الدوام بالمادة
الحسنة والطراز العالى . ولكنى أنكر أن يكون هم المؤلف مقصوراً على
التأنق فى اللفظ ، والتظرف فى العبارة ، حتى يقف من القارىء موقف
العبد من سيده ، يقنع بسروره ورضاه عنه . كلا . انما أحب من المؤلف
أن يقف موقف الأمير ، يقصد الى فائدة القارىء وتعليمه وتنويره . وهو
لن يستطيع ذلك حتى يمد بصره وبصيرته فى هذا العالم ، بل فى هذا

الكون . ولايكون ذلك الا بالدرس المتواصل للانسان . تاريخه ، وأصله ، ومستقبله ، وحاضرة ، ومؤسساته ، ومالرتكب من جهالات وأساطير ، وماحقق من علوم وآداب

هذا هو موضوع الاديب ، درساً لنفسه ، وبسطاً للقارىء ، حتى يكون أدبه أدب الامارة لا أدب العبودية

أدب الفقاقيع

لفقاقيع الماء ، أو نفاخاته التى تعلوه ، ملاحة لا تنكر . وخاصة اذا ضربتها الشمس ، فازدهت وسطعت تعكس على العين ألوانها العديدة . ولكنها مع ذلك فقاقيع ، سرعان ماتتفقأ اذا مر عليها النسيم

وكذلك الحال فى أدباء الصنعة ، يكتبون وكل همهم محصور فى تأليف استعارة خلابة أو مجاز جميل أو كناية بارعة أو غير ذلك من الفقاقيع . فاذا أراد أحدهم أن يؤلف كتاباً أو يضع مقالة ، لم يعن أقل عناية بالموضوع الذى يكتب عنه . وانما هو يعمد الى الفقاقيع فيؤلف منها عبارته اذا استطاع ، أو يذهب الى أحد القدماء فيجمع منه بعد الكد والعناء جملة عبارات خلابة ، يتوبل بها انشاءه أو يرصها رصاً . اذ كثيراً مايعجز امثاله عن تأليف عبارة من انشائه الخاص .

وهكذا يعيش كتاب الصنعة هذه الأيام ، بما خلفه لهم القدماء ، يتداولون الصيغ القديمة فى الأداء ، ويجترونها اجتراراً كما تجتر البهيمة طعامها طول حياتهم . أو يقضون وقتهم فى العبث واللهو ، بتأليف السجعات والاستعارات والتشبيهات . ولست أنكر أن لهذه الأشياء جمالاً ، ولكنه جمال الفقاقيع ، والزبد الذى يذهب جفاء عندما تسطو عليه أشعة الشمس أو تهفو به ريح

فقد قرأنا كلنا مقامات الحريرى ورسائل الهمذانى ، واستملحناها ولهونا بها ، وتشدقنا بالفاظها . وللآن لا نزال نستملحها كما نستملح فقاقيع الزبد . ولكن لا يخطر فى بالنا أن نقلد هذين الكاتبين . لأن اسلوبهما لا يتفق والانشاء الرصين فى الموضوع الجدى ، أو الانشاء الدقيق فى الموضوع الفلسفى أو العلمى

ولكن كتاب الصنعة يكرهون الفلسفة والعلوم . وقد قال احدهم وهو المنفلوطى (وربما كان أقلهم صنعة) . « مادخلت الفلسفة اياً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة الا أفسدته »

وهذه نزعة خطرة نطلب أن يعمد رجال الذهن فى جميع البلاد العربية الى وقفها بكل الوسائل . فيجب أن نحبب لتلاميذنا الفلسفة والعلوم ، ونكره لهم فقاقيع الاستعارات والكنايات . أو بعبارة أخرى يجب أن نحبب اليهم الجد ، ونباعدهم من اللهو ، ونكبر لهم من قيمة المعنى والغاية ، ونصغر لهم من شأن الزخارف اللفظية

وهذه الزخارف اللفظية كثيراً مايعشقها الشباب ، الذى تستوى اسماعه رناتها الموسيقية ، فيسترسل فيها ، ويعنى بتنميقها ، فيذهب وقته فى تفكير ركيك وعبارات مزخرفة . وبدلاً من أن يعمد الى الدرس الجدى المفيد ، يأخذ فى استظهار عبارات وألفاظ خلابة كتبها الجاحظ أو رواها الاغانى أو دبجها الجريرى . ونحن نعيش فى زمن لا يتسع الآن للاساليب المزخرفة فى الكتابة ، لان علينا أن ندرس آلافاً من الشؤون التى لم يعرفها القدماء

وحسبك دليلاً على الخطر الذى ينال الشبان مما يبثه كتاب الصنعة من التعلق بالالفاظ ، مايكتبه أكثرهم الآن فى الصحف غير مبالين الا بتنميق الالفاظ . وهاك مثلاً ماكتبه احدهم عن الاتفاق :

« الاتفاق وماأدراكم ما الاتفاق ؟ الاتفاق هو حمامة بيضاء تحمل بفمها غصن زيتون لتبشر القوم بنجاتهم من الطوفان

« هو بلبل غريد يطرب بانغامه البديعة قلوب من لمستهم الاحزان

« هو عندليب يرتفع فى الفضاء ومن هناك يرسل لنا بنغماته الشجية ممزوجة بنسيم الجنان

« هو ملك سماوى يرفرف باجنحته النورانية فوق أرواح الشجعان

« الله أكبر من أنت وما أسمك ، بماذا اصفك وبمن اسمك ؟ أاصفك بجمال الطبيعة فى يوم من أيام الربيع قد صفا أديمه ورق نسيمه وتلالا زهره وغردت عنادله وشدت بلابله وسجعت حمامه وتميلت اغصانه وفاح عبيره وترنحت اناسه الخ . الخ »

فاعتبر هذا الشاب يطلب اليه أن يكتب عن فوائد الاتفاق والاتحاد ، فلا يجد سوى هذه الألفاظ المرصوصة ، وهذا اللغو السخيف يملأ به أربع صفحات كبيرة . وهو شاب شرقى عاش فى بلاد عرفت ماجره عليها الاختلاف المذهبى والطائفى من الخراب . فيترك امثلة التاريخ وعظاته ، ويكتب عن البلابل وأجنحتها والحمائم وأسجاعها . وليس ذلك الا لانه نشأ يحب الفقاقيع من الالفاظ الرنانة ويؤثرها على الدرس الصحيح

وهذا كاتب آخر هو مصطفى الرافعى يضع كتاباً عن الحب والجمال . ويبدأ الفصل الأول منه بوصف « فقاعة » هى نصاب قلم مصنوع من زجاج ، ويحتوى على مداد أحمر ، ويباع فى القاهرة بنصف قرش . فيكتب عن هذا النصاب عدة صفحات ، ويستوحى منه التأملات والخواطر فى الحب والجمال . فهو كاتب صنعة لا يبالى الا برنين ألفاظه وخلابة استعاراته

وهذا لعمرى هو اللهو واللعب . فان للأدب غاية ، وغايته هى صلاح الناس وهديهم ، وكشف حقائق هذا الكون ، والتمتع بجمال هذه الحقائق والسكون اليها . وهذا لا يكون الا بالدرس المتواصل والنية

الحسنة لهذا العالم ، الذى هو وطننا الأكبر ، والبعد عن غرور اللفظ وزهوه وخلابته

الحكومات الحاضرة : أنواعها ومقدار ثباتها

لما عرف الانسان الزراعة ، وأستقر فى مكان لا يريم عنه ، احتاج بطبيعة حاله الى حكومة تحرس له حقله وتمنع عنه عدوان جاره . أما قبل ذلك فانه فى تجواله فى الغابة ، وضربه فى البوادى ، لم يكن فى حاجة الى حكومة . ولايزال البدو حتى الآن بلا حكومة ، أو ليس لهم من الحكومة الا مقدار ماكتسبوه من أهل الريف والزراعة

وترجع حكومة الانسان الأول الى أصلين نشأت منهما الملوكية أو الأمارة الأولى . فقد كان الملك الأول اما كاهناً عظيماً ، واما قائداً منصوراً . وكان لا يستمد قوته فى كلتا الحالتين من الشعب المحكوم ، وانما كان له من وجاهة الدين والسحر ، أو من قوة الجيش ، مايجعله يستبد فى أساليب حكمه ، وينسب نفسه وسلطانه الى الآلهة . ومن هنا نجد ان معظم الملوك الأقدمين كانوا مقدسين بل مؤهلين ، حتى الاسكندر المقدونى نفسه اعتزى الى الآلهة عندما جاء مصر . وامبراطور اليابان حتى الآن لايزال إلهاً له حرمة الآلهة القديمة

هذا هو حال الأمم القديمة إنما يجب مع ذلك أن نميز بين مبدأين فى الحكم يختلفان فى الشرق والغرب ، وهما أن حكم الشرق كان على

الدوام حكم استبداد ، فى حين أن حكم الغرب كان حتى في عصوره القديمة قائماً على مبدأ النيابة . وليست علة ذلك راجعة الى استعداد الشرقي لقبول الاستبداد وأباء الغربى إياه ، بل ذلك كله راجع الى وفرة الطعام في الشرق حيث الحرارة والضوء يسرعان فى نمو الزراعة . وكثرة غلات الزراعة تؤدى إلى كثرة السكان . ثم أن كثرة السكان تضع من مقام العامل ، لأن الأجور عندما يكثر طلابها تنزل إلى أحط قيمة يطلبها أحط عامل . وبعبارة أخرى نقول أن الوسط الزراعى الشرق يعمل لأيجاد فقر دائم بين العمال ، والفقر مدعاة عجز العامل واستبداد الحاكم به

وفى العالم المتمدين أو الشبيه بالمتمدين خمسة أنواع من الحكومات وأول هذه الأنواع وأقدمها ، وأقربها إلى الزوال ، هو الحكومة الملوكية المطلقة . حيث يحكم الملك مستبداً برأيه دون التقيد برأى الأمة . وقد كان هذا شأن معظم الحكومات قبل القرن التاسع عشر ، وأقربها إلى عهدنا حكومة قيصر روسيا ، وعبد الحميد ، وشاه الفرس . وكلها قد زالت ولكن مازال الحكم المطلق قائماً فى سيام من جنوب آسيا ، وفى بعض امارات الهند

والنوع الثانى هو الملوكية الدستورية المقيدة ، وأقدمها فى العالم الآن حكومة انجلترا . بل يمكن أن نقول ان دستور انجلترا هو أبو الدساتير التى فى العالم أجمع . وكفى الانجليز فخراً هذا الفضل الذى أسدوه إلى الحضارة الحديثة . فإذا أنت فتشت عن دستور أى قطر فى العالم ، سواء أكان فى الشرق أم فى الغرب ، الفيته يهتدى بهدى الدستور الانجليزى ، ويستنير بضوئه . إذ ليس للدساتير الحديثة أية علاقة بأنظمة الحكم فى روما أو أثينا القديمتين . وقد هدمت الحرب الأوربية أكثر من عشرة

عروش كان ملوكها دستوريين إسما ، ولكنهم لم يسيروا على رأى الأمة التى كانوا يتولون أمرها ، فلم يحمهم الدستور لهذا السبب . وإنما بقى الملوك الدستوريين بالفعل ، وهؤلاء مازالت عروشهم ثابتة لم تتزعزع

والنوع الثالث من الحكومات هو الحكومة الجمهورية . وجميع الحكومات الجمهورية ديموقراطية ، أى أن الرأى القاطع فيها للأمة بل لدهماء الأمة . وأكبر مثال لهذه الحكومة هو الجمهورية الفرنسية ، وهى ليست فى ثبات الملوكية الدستورية التى فى شمال أوربا ، مثل حكومات دنماركا وأسوج ونرويج وهولندا وانجلترا

والنوع الرابع للحكومات هو الحكومة الاتحادية مثل سويسرا والولايات المتحدة وألمانيا . وتختلف الاتحادية عن الجمهورية من هذا الاعتبار التالى : ففى الجمهورية لايوجد سوى دولة واحدة ، هى صاحبة الحق فى سن القوانين لجميع سكان الدولة . فالفرنسى فى أى بلدة كانت من بلاد فرنسا يخضع للقوانين التى يسنها برلمان الدولة فى باريس ، وهذا بخلاف الحال فى الاتحادية حيث توجد عدة دول متحدة كل دولة منها مستقلة فى تشريعها ، لها قوانينها الخاصة بها . وانما لها حكومة مركزية ، قد اتفقت هذه الدول المتحدة على اعطائها بعض الحقوق . وهذا هو السبب فى أن فى فرنسا شرعة واحدة للزواج يخضع لها جميع السكان . أما الولايات المتحدة ففيها من الشرع للزواج بقدر مافيها من الولايات . وكذلك الحال فى ألمانيا ، فقوانين بروسيا غير قوانين بافاريا ، وقوانين همبرج تختلف عن قوانين ساكسونيا

أما النوع الخامس فهو الحكومة السوفيتية ، أى القائمة على مجالس العمال ، كما هو الحال فى روسيا . ولايمكن البت فى ماهية نظامهم . فالاحقاد والاغراض لاتزال تحول دون معرفة أحوالهم على وجه

التحقيق ، وانما يبدو من ارتباك روسيا الذى لاينتهى أن نظام الحكم عندهم لايمكن أن يحمد كثيراً

ويبدو من التجارب الجارية فى أنواع الحكومات ، ومن تاريخ القرن الماضى والحاضر ، أن أثبت الحكومات هى الحكومة الانجليزية . وهذه الحكومة لاتوصف بكلمة ، وانما كمال وصفها أن يقال : انها ملوكية دستورية ديمقراطية أرستقراطية . وربما كان احتواؤها على جميع هذه العناصر هو سبب استقرارها فى الحوادث المدلهمة التى زعزعت غيرها .

فهى لا تمثل الدهماء بواسطة مجلس العموم فقط ، بل تمثل الاشراف والاغنياء أيضاً بواسطة مجلس اللوردات . وفوق هذين المجلسين نجد عنصر الاستقرار المكين ، وهو الملك ، فانه من أكبر عوامل التوفيق بمكانته لا بسعيه . فان الاشراف والاغنياء يلتفون حول العرش ، فاذا نازعهم النواب ، وتفاقم النزاع ، نزلوا هم عن بعض مطالبهم محافظة على العرش . ومن السنن التى تتبعها الأسرة المالكة فى انجلترا فى زواج أبنائها ، انها تصاهر أشراف الانجليز بدلاً من مصاهرة الأسر الملوكية فى اوربا . وهذا يجعل الاشراف يلتفون حولها

ولا يعرف مصير الحكومات فى المستقبل . فان الرأى العام فى أوربا ، اذا قيست ميوله المقبلة بميوله فى العشر السنوات الأخيرة ، رأيته يتجه نحو الحكومة الجمهورية والاتحادية . ومن الانجليز من يطلب الغاء الملوكية ، ويصرح بذلك على صفحات الجرائد الآن

الدين والتطور وحرية الفكر بينهما

حدث فى الشهر الماضى حادثان عظيمان ، يجب أن يبالى بهما كل مفكر سواء فى الغرب أو فى الشرق . أولهما أن المدرس سكوبس أخبر تلاميذه أن قصة آدم وحواء فى أصل البشر كما روتها التوراة غير صحيحة بحرفها . وأن الصحيح أن الانسان والقرد من أصل واحد . وقد حكمت عليه محكمة ولايته (احدى الولايات المتحدة) بغرامة قدرها عشرون جنيهاً لمخالفته تعليم التوراة . وحدث فى مصر حادث شبيه بهذا . فان الاستاذ على عبد الرازق وضع كتاباً قال فيه ان الخلافة ليست أصلاً من أصول الاسلام ، فحكم عليه العلماء باخراجه من زمرتهم

والحادثان يتعلقان كما يرى القارىء بأثمن شىء عرف فى هذا العالم ، وهو حرية الفكر والرأى . وليست المسألة صحة نظرية التطور أو فسادها ، ولا هى صواب القول بأن الخلافة مبدأ دينى أو مبدأ مدنى . فقد تكون نظرية التطور خطأ ، وقد يكون كتاب الشيخ على عبد الرازق كله سفسطة ، ولكن المسألة المهمة فى هذا النزاع هى أن كلا من المستر سكوبس والاستاذ على عبد الرازق له الحق فى أن يكون حراً . يرتأى مايشاء من الآراء ، دون أن يقيد بأى قيد سوى الاخلاص

وحرية الرأى هذه هى آخر ماأنتهت اليه الحضارة الراهنة . وانما أنتهت اليها بعد تجارب أثبتت لها أن كل تقييد يؤذى الأمة ويعود بالضرر فى النهاية على المجموع . وليس يشك فى أن حرية الرأى تغضب كثيرين من الناس . ولكن الشرط الأساسى للحضارة هو التسامح . فما لم يرض الناس بأن يسمعوا الآراء المخالفة لهم ، ولو كان ذلك على مضض منهم ، لما تقدموا ولما ارتقت الأمم . فالارتقاء يستدعى ابتداع البدع ، واصطناع العادات والمخترعات الجديدة ، فان لم يتسامح الناس فى هذه التغييرات ولو آلمنهم بعض الألم ، لما اتيحت الفرصة لهم بأن يتقدموا

انى أؤمن بنظرية التطور ، وربما كان أكبر مايدفعنى الى الايمان بها أنها ليست من الحقائق العلمية فقط ، بل انها نظرية الرجاء والتواضع . ومعنى ذلك انى أؤمن بها للغريزة الدينية التى فى نفسى . ففى نفسى عطش الى الابدية ، ولست ارتاح الى أن يكون هذا الانسان الراهن على مافى جسمه وعقله من خلل ونقص خالداً . ولا الى أن أرضنا مركز للكون . وانما ارتاح الى الرجاء بأن الانسان فى المستقبل سيكون ضخم الرأس ، جميل الجسم ، فيلسوفاً بطبعه ، لا ينظر الينا نحن آباءه الا كما ننظر الى الحيوان . فهذا النظر يملأنى رجاء ، ويحثنى على الصلاح والتقوى . ثم أن معرفتى بتطور المادة والعوالم ، يملأنى تواضعاً وخشوعاً فى هذا الكون ، بدل ذلك الصلف المؤذى الذى يملأ رؤوس أولئك الذين يحسبون الأرض مركزاً للكون . وقد أكون مخطئاً فى نظرى ، ولكنى أجد الراحة فى هذا الايمان ، فيجب أن أترك حراً فى أن أعتقد صحته ، وان أدعو اليه غيرى الذى قد يجد فيه مثلما أجد فيه من الراحة . فان كان فيه شيء من الخطأ ، ففى الدعوة اليه ، والجدل فيه ، تمحيص له من هذا الخطأ

نحن نعيش الآن فى زمن قد تقدمت فيه العلوم المادية كالطبيعة والكيمياء والميكانيكيات والفلك ، وتأخرت فيه العلوم المعنوية كالآداب والدين والسياسة . ونتج من ذلك تفاوت عظيم بينهما . ففى الحرب الكبرى والاخيرة مثلاً ، كان التقاتل بالغازات والطيارات ، وكان الناس يبادون بالملايين لتقدم العلوم المادية . ولكن عندما قعد رجال السياسة يتفاوضون فى الصلح بعد عقد الهدنة ، كانت لغتهم وتعابيرهم ونياتهم ووسائلهم لا تختلف عما كانت عليه هذه الأشياء عند ساسة القرون الوسطى ، بل عند ساسة الرومانيين . ومن هنا نجد الاستعمار قائماً حياً كما كان فى عهد الاسكندر المقدونى . وكذلك الحال فى الدين . فان الحالة الروحية فى الانسان لم تتقدم الآن عما كانت عليه منذ الفى عام . وكذلك الأدب ، فان الياذة هوميروس ليس لها المقام السامى الذى تشغله الآن فى اذهان الادباء ، الا لأن الأدب لم يرتق منذ أكثر من الفى عام

والعلة فى ذلك أن الحرية الفكرية مطلقة لا يحدها حد فى العلوم المادية . فلو قال انسان أن الحديد ليس عنصراً بل هو مركب ، لما عارضه آخر الا بالحسنى . واذا هو تحداه فانما يتحداه بالتجربة . ولكن اذا دعا داع الى البولشفية . أو قال بان الخلافة خطأ أو صواب ، أو ان الجمهورية خير من الملوكية ، أو أن الزواج باثنتين خير من الزواج بواحدة ، أو أن أدب العرب سخيف وأدب المصريين أسخف منه ، فانه يجد استنكاراً من بعض الناس . بل ربما يجد من الحكومة والقوانين تحفزاً أو هجوماً قد يقضى على وجوده المعنوى أو المادى . لهذا السبب جمدت الأديان والآداب والسياسة ، وبقيت كما كانت منذ الفى عام تقريباً ، فى

حين ارتقت العلوم المادية حتى صار كثيرون يخشون من رقيها لعظم التفاوت بينها وبين العلوم المعنوية

ولن ترتقى السياسة أو الاجتماع أو الدين حتى تشملها الحرية شمولاً تاماً كما شملت العلوم المادية . وتجارب الأمم تدل على أن الانسان روحانى بطبعه ، بدليل انه ليست تخلو أمة راقية على وجه الأرض من دين . ومن البلاهة أن نظن أن انساناً يمكنه أن يكون كافراً معطلاً لا يؤمن بشىء . ففى كل منا عطش الى الخلود ، والى الاتصال بهذا الكون ، بل بروحه . وهذا فى اعتقادى هو الدين . بل هو لب الدين . وهو أكبر مما يحبب الى نظرية التطور . فانى أحب الخلود لا بجسمى وعقلى هذين ، بل بما ينشأ منهما فى المستقبل ، ويكون أرقى منهما

وخلاصة القول اننا يجب أن نتحمل بعض المضض مما يصدمنا من الآراء الجديدة فى الدين والسياسة والاجتماع . لأن شرط الحضارة الأساسى هو التسامح . والتسامح هو الرضا بما يقوله الآخرون ، وان آلم نفوسنا بعض الألم . والعلوم المادية انما تقدمت بحرية الفكر . فالعلوم المعنوية كالدين والسياسة والاجتماع والآداب لن تتقدم أيضاً الا بحرية الفكر ، ولو آلمت هذه الحرية بعض الناس . ويمكن بعبارة أخرى أن نقول ان العلوم المادية تطورت وارتقت لان الذين عالجوها نظروا اليها بنزاهة وحرية نحن فى حاجة الى أن نعالج بهما العلوم المعنوية . ومن الغفلة الهائلة أن يبحث علماؤنا الان عن أصل المادة ، ويكادوا يلمسون سر الكون المادى ، بينما يدافع آخرون عن اتوقراطية تشبه اتوقراطية حكومات الفراعنة ، أو عن عقائد فى الدين أو الاجتماع قد مضى عليها آلاف السنين ويطلبون منا الايمان بها بقوة المحاكم وصولة القانون

ثم يجب أن لا نخشى البدع ، لأن كل تقدم يتطلب الايمان ببدعة أو على الأقل التسامح فيها . وتنازع البقاء يعمل فى البدع كما يعمل فى أى شيء آخر ، يبقى على الحسن ويبيد منها السيء . والانسان جامد بطبيعة عمرانه ، فهو ليس فى حاجة الى قوانين تحرسه من البدع . فان الوسط والتجربة واللغة والثقافة والعادة كلها تعمل للجمود ، لأنها كلها تلفت نظر الانسان الى الماضى ، وتبسط حوله قيوداً من حيث لا يشعر تربطه بالاساليب القديمة . وربما كان أكبر مايعمل للجمود هو اللغة ، فانها بألفاظها الموضوعة تسومنا التفكير فى طرق خاصة لاسبيل للخروج منها الا للاقلين . ولغة الأمة وتاريخها ، وثقافتها الماضية وتقاليدها ، هى لها بمثابة ناموس الوراثة للجسم الحى ، لا يستطيع أن يخرج عنه الا خروجاً يسيراً هو أصل التطور والرقى . ومعنى كلامنا ان نظام الأمة الاجتماعى يعمل للجمود ويساعد عليه . فهى أى الأمة ليست فى حاجة الى قوانين تدافع عن هذا الجمود فيجب لذلك أن نترك الناس يبتدعون فى السياسة والاجتماع والاداب والاديان ، فلعل فى ابتداعهم مايرقيها الى صف الكيمياء والفلك والميكانيكيات التى توشك أن تبيد الحضارة . ومن البلاهة أن يقال أن روحانية الانسان غير قابلة للتطور والرقى ، فهذا الحكم لو كان صحيحاً لوجب أن نتوهم ونوهم الناس كذلك عدم صحته لمصلحة النوع البشرى

خصلتان فى الأدب العربى :
حب القديم وكثرة الصنعة

للقديم حرمة فى الشرق أكثر مما له فى الغرب . فبلاد الشرق هى بلاد السلف ، يحكمونها وهم فى قبورهم بآدابهم وتقاليدهم وشرائعهم . وليس للخلف الراهن سوى الاذعان . وهذا هو مانراه على أقصاه فى الصين ، حيث للسلف حرمة تشبه العبادة . ثم نرى هذه الحرمة تضعف بالتدريج الى أن تصل الى تخوم أوربا ، فتكون على أضعفها . وللسلف حرمة عند العرب ، نرى أثرها فى الآداب العربية . وهى وان لم تبلغ عندنا مابلغته فى الصين ، فان أثرها لايزال بيناً فى تطورنا البطىء الراهن ، بل فى تطور الأمم العربية الماضية التى كانت تقدس سِيَر أسلافها . ولست فى حاجة الى ذكر صنوف الجمود التى طرأت على الحكومة والهيئة الاجتماعية والاخلاق عند الأمم العربية الماضية ، للزومها السنن التى استنها لها السلف . وانما اذكر هنا بعض ماأصاب الآداب العربية من الجمود لهذه الخصلة . فقد قال ابن قتيبة يصف مايجب على الأديب المتأخر أن يتوخاه فى أدبه فقال :

« ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين ، فيقف على منزل عامر ويبكى عند مشيد البنيان ، لان المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى . أو يرحل على حمار أو بغل فيصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يرد على المياه العذبة الجوارى ،

لأن المتقدمين وردوا على الاواجن الطوامى . أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والورد والآس ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار »

فمن هذه القطعة المقتبسة يدرك القارىء احدى خصائص الأدب العربى ، وهى نزعته الى القديم ، واحترامه للسلف بما يكاد يبلغ حد العبادة . ولذلك تجد الان من أدبائنا من يترك خياله الشخصى ، ويقترض خيالات القدماء فيضمنها قصائده . بل منا من يبدأ مديحه بالتغزل الكاذب بطيف الحبيب على نحو ما كان يفعل قدماء العرب . ثم منا أيضاً من يقصر شعره على المقاصد التى قصد اليها العرب من مديح وهجاء ووصف ، لا يخلو من ذكر العيس والبيد . وقد يكون الكاتب قد عاش طول حياته فى مدينة لم ير فيها العيس أو البيد . وربما كانت هذه الخصلة هى سبب كراهة أدباء العرب لآداب الاغريق . فقد كان فيها أشياء يمكن اصطناعها ، ولكن نزعة الجمود – أى ماللقديم من حرمة – منعت هؤلاء الأدباء من استنان اية سنة جديدة فى عالم الأدب العربى . ولذلك بقى الشعر فى أيام الدول الاسلامية المتقدمة والمتأخرة كما كان أيام الجاهلية ، على الرغم مما طرأ عليه من ترقيق الحضارة

وخصلة أخرى فى الأدب العربى هى الأغراق فى الصنعة . وهذه الخصلة بحكم ماذكرناه آنفاً من احترام القديم لاتزال حية بين أدبائنا . فالمنفلوطى لم يبلغ من الشهرة ذلك المدى البعيد الا لجمال صنعته ، وتوخيه دس العبارات القديمة فى ثنايا انشائه . والرافعى والمازنى كلاهما لايبالى بشىء بمقدار مايبالى بالصنعة . ولو كانت هذه الصنعة فى توخى الدقة لما كان يمكن الاعتراض عليها . فان دقة التعبير هى فى اعتقادى غاية الغايات فى اللغة . وهى هم كل كاتب مخلص يود أن يفضى الى القارىء

بحقيقة فكره ، ويتعمل لهذا الافضاء ، وقلما يبلغ غرضه . وانما كان القصد من الاغراق فى الصنعة ، وهو لايزال الى للآن ، قائماً على الزينة والبهرجة . وليس من شأن هذه الصنعة أن تزيد الدقة فى المعنى أو تقربه للقارىء ، بل هى تؤدى الى نقيض ذلك . اذ تشوش ذهنه بألفاظ لا لزوم لها

وهاك مايقوله ابو هلال العسكرى :

« وليس الشأن فى ايراد المعانى . لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروي والبدوي ، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ماوصفناه من نعوته التى تقدمت »

وقال أيضاً :

« المعانى مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجديد للسوقى والنبطى والزنجى ، وانما تتفاضل الناس فى الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها »

وقال الآمدى فى كتابه الموازنة :

« وليس الشعر عند أهل العلم به الا حسن التأتى وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ فى مواضعها ، وان يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل فى مثله وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه ، فان الكلام لا يكتسى البهاء والرونق الا اذا كان بهذا الوصف »

الى أن قال :

« فان اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد فى بهاء الكلام وأن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه ، واستغنى عما سواه »

ومن هذه الاقتباسات يرى القارىء أن الآمدى وأبا هلال العسكرى

يعنيان باللفظ أكثر من عنايتهما بالمعنى . وقد صار هذا من تقاليد الأدب العربى ، حتى جاء وقت غمرت فيه الصنعة كل شىء ، وأصبح الأدب مجموعة ألفاظ عالية الرنين سخيفة المغزى والمعنى

فهاتان اذن هما خصلتان اتسم بهما الأدب العربى من قديم ، ولهما كلتاهما أثر فى أدبنا الحديث . فاحداهما تمنع الأدب من التجدد ، وتجعل الأديب يتلفت على الدوام الى الوراء ، يستوحى الماضى بدلاً من أن ينظر بعين الرجاء الى المستقبل ، أو بعين الثقة الى نفسه ، والأخرى تدفعه الى بعثرة قواه فى تحفظ الألفاظ الفخمة والعبارات الجزلة ، وفى اصطناع أسلوب مقترض غير أسلوبه الشخصى ، فيذهب المعنى والمغزى فداء لبهرجة سخيفة تؤذى القارىء والكاتب معاً ، وتضعف فى كل منهما ملكة التفكير الصريح النير

هذه بعض خواطر عنت لى بعد قراءة رسالة مفيدة لخليل مردم . عن شعراء الشام فى القرن الثالث وعنايتهم بالالفاظ

اللغة الفصحى واللغة العامية

ورأى السير ولكوكس

السير وليم ولكوكس أحد أولئك الاجانب القلائل الذين تقر مصر بفضلهم وولائهم . فقد أحدث من مشاريع الرى ما عاد على الفلاح من الثروة بما لا يقل عما عاد عليه من استنتاج المسيو سكلاريدس للبذرة المسماة باسمه . فكلا الرجلين ذو فضل علينا لا ينسى ، وحق يجب أن يرعى . ولكن السير وليم ولكوكس ليس مهندساً فقط ، يفكر فى الطين والحجر ، ويعمل بالمسطرة والبركار ، بل هو أيضاً رجل خيال ورؤى وأحلام ، يفكر فى مستقبل الناس . ولعل له « طوبى » ينشرها على الناس يوماً ما فيرسم لهم فيها نظاماً جديداً للحكومة والتربية والزواج ، وغير ذلك من المثل العليا للهيئة الاجتماعية التى يحلم بها . واعتقادى أن السير ولكوكس من عظماء الهندسة ، لأنه يجمع بين صوفية الأديب ودقة العالم

وهموم السير ولكوكس مصرية أكثر مما هى انجليزية . فهو يقيم فى مصر ويفكر فى صالح مصر ، لأن مصر هى وطنه الثانى . ولأنها كانت

أيضاً الواسطة التى تمكن فيها من استغلال مواهبه فى خدمة الناس وزيادة رفاههم . والهم الكبير الذى يشغل بال السير ولكوكس بل يقلقه ، هو هذه اللغة التى نكتبها ولا نتكلمها ، فهو يرغب فى أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية ، فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا

والتأفف من اللغة الفصحى التى نكتب بها ليس حديثاً ، إذ هو يرجع الى ماقبل ثلاثين سنة ، حتى نعى قاسم أمين على اللغة الفصحى صعوبتها ، وقال كلمته المشهورة : « أن الأوربى يقرأ لكى يفهم ، أما نحن فنفهم لكى نقرأ » . أو مامعناه ذلك . وقد اقترح أن يلغى الاعراب ، فتسكن أواخر الكلمات كما يفعل الأتراك . وقام على أثره منشىء الوطنية المصرية الحديثة أحمد لطفى السيد ، فأشار باستعمال العامية أى لغة العامة . ولكن هؤلاء العامة الذين انتصر للغتهم ، كانوا من سوء القدر لأنفسهم ، بحيث تألبوا عليه وجازوه جزاء لا يأتى الا من العامة الذين لا يدرون مصالحهم . وفى العام الماضى حدثت فى سوريا مثل هذه الحركة ، فألف فاضل رسالتين دعا فيهما الى اصطناع العامية السورية بدلاً من اللغة الفصحى . واستند فى دعوته الى أن اللغة العامية أوفى تعبيراً ، وأدق معانى ، وأحلى الفاظاً من اللغة الفصحى . وقد هبت الصحف السورية والفلسطينية ، حتى العراقية ، تقبح رأيه وتنسبه الى ضعف الحمية الوطنية ، مع أن المنطق أحرى بأن ينسبه الى قوة هذه الحمية التى غلبته حتى أخرجته من شيوعية القومية العربية وحصرته فى حدود الوطنية السورية

ولست أنقم على اللغة الفصحى الا شيئين . أولهما صعوبة تعلمها ، وثانيهما عجزها عن تأدية أغراضنا الادبية . أما من حيث الصعوبة فانه يكفى أن نقول اننا نتعلمها كما نتعلم لغة أجنبية ، وأن احسن كتابنا

يخطىء فيها لا أقول عشرات الاغلاط وأنما أقول مئات الاغلاط . وإننا مهما تعنينا وتوخينا الصحة ، فاننا لعدم اشرابنا روحها ، وبعدنا عن قياسها ، لا نزال نرتكب الهفوات فيها . وفي العام الماضي اتهمني واحد ممن يعدون اللغة والقرآن وحدة لا تنقسم ، بأني لا أحسن الكتابة بها . فأجبته بأن هذه التهمة حجة على اللغة وليس هي بالحجة علي . فاني الآن في العقد الرابع من عمري ، احترف الكتابة منذ عشر سنوات ، وأقرأ من كتب الأدب مهجورها ومنشورها ، فاذا كنت بعد ذلك أعجز عن عن الأداء بها ، فهي اذن أحق باللوم مني . ونحن جديرون بأن نبحث عن لغة أخرى نؤدي بها أغراضنا ، بدلاً من هذه اللغة التي تقتضي من الدرس عشرات السنين ، ثم لا يحسن بعد ذلك دارسها كتابتها . ولكن الواقع الذي لا أناقش فيه أن اللغة العربية يشق على الطالب تعلمها . وطلبتنا مكدودون في المدارس ، يكدحون لفهم المئات من قواعدها ، ويخرجون بعد ذلك منها وهم يكرهونها ، لأنهم لا يرون طائلاً وراءها .

ثم هي أيضاً لا تؤدي أغراضنا . وقد كانوا يعلمون العلوم في مدارسنا الى عهد قريب بالفرنسية أو الانجليزية ، ولا يزال الطب يعلم بالانجليزية . ولكن الأغراض العلمية يسهل اداؤها بأي لغة ، بل يمكن اداؤها بالرموز أحياناً . ويكفي أن نعرّب الأسم الأوربي بلا ترجمة فنبلغ غايتنا من فهمه . ولكن نكبتنا الحقيقية هي أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصري ولا تنهض به . لأن الأدب هو مجهود الأمة وثمرة ذكائها ، وابن تربتها ، ووليد بيئها . فهو لا يزكو الا اذا كانت اداته لغة هذه البيئة التي نبت فيها . « فالدرامة » مثلاً لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تنشأ مالم تستخدم اللغة العامية . وكذلك القصص ، بل الأدب الأوربي كله يبتدىء تاريخه من الوقت الذي عمد فيه الأدباء كل

الى لغته فكتب بها ، وهجر اللاتينية التى كانت لغة أوربا جمعاء

ومما يمكن أن ينقم على اللغة الفصحى أيضاً ، انها تبعثر وطنيتنا المصرية ، وتجعلها شائعة فى القومية العربية . فالمتعمق فى اللغة الفصحى يشرب روح العرب ، ويعجب بابطال بغداد القدماء ، بدلاً من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر . فنظره متجه أبداً نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية . مع اننا فى كثير من الأحيان نحتاج الى الاتجاه نحو الغرب . والثقافة تقرر الذوق والنزعة ، وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق . وأنه لأنفع لنا وللشرق أن ينزع هو الينا ، لا أن ننزع نحن اليه

وربما كان مما ينقم أيضاً على اللغة الفصحى تلك الرنة العالية التى تجدها فى الفاظها ، والتى كثيراً ما تطوح بسببها الكتاب حتى وقعوا فى الاسجاع . وبعض كتابنا يستهويه للآن رنين الالفاظ . فيكد ذهنه عند استهلال المقال فى ايجاد جملة سجعات ، وينثر فى غضون مقاله فقرات مسجعة محفوظة من الهمذانى أو الحريرى أو غيرهما ، مما نكب بهم الأدب العربى . ويعتقد أن هذا اللعب السخيف يظهر الناس على تفوقه فى الانشاء . ولكن الحقيقة أنه فى ذلك يزنى على ذهنه ، ويبيع قلبه لمن لا يحبه . ومنذ أعوام قلت أن أفضل أساليب البلاغة هو الاسلوب التلغرافى ، لأنه يمنع المنشىء من التهتك بالالفاظ ، والانغماس فى طربها الوحشى الذى يشبه طرب الجمال بالحداء . فعاب على هذا الرأى بعض كتابنا وأبوا الا الاستمساك بالاساليب القديمة ، والاقتداء بالجاحظ والجرجانى والخوارزمى يرطنون مثلهم رطانة عربية

ولكنى الآن بعد اختبار الرأى ، لا أرى أن نهضتنا تقوم الا باتباع

آراء قاسم أمين ولطفي السيد والسير ولكوكس باتخاذ اللغة المصرية العامية ، أو بأيجاد مايشبه « التسوية » بينها وبين اللغة الفصحى ، بحيث تتمصر هذه اللغة ، فتصطبغ بألوان بلادنا وتتأقلم فى حقولنا ومدننا .

والسير ولكوكس لا يقول بهذه التسوية ، انما يدعونا الى هجرة اللغة الفصحى هجرة تامة واصطناع العامية . وقد ترجم هو نفسه الانجيل الى اللغة العامية المصرية ، فوفق فيه الى ترجمة حية يقرؤها المصرى فيلذ له الأسلوب ، ويرى فيه جواً مألوفاً يشم منه النكهة البلدية . وهو فى اعتقادى أوقع فى النفس من الانجيل المترجم الى اللغة الفصحى

وقد خطب منذ أشهر خطبة عن هذه اللغة ، جمع فيها اختباراته عنها ، وارتأى فيها أن هذه العامية التى نتكلمها فى مصر ليس لها علاقة بالعربية الفصحى . فكلٍ منها لغة متميزة عن الأخرى . ونحن لم نكتسبها عن العرب ، وانما نزلت الينا من الهكسوس الذين أقاموا فى مصر نحو ٥٠٠ سنة . وأن طريقة النفى المزدوج حين نقول : « أنا ما عملتش » هى طريقة لا يعرفها العرب ، وانما جاءتنا من الهكسوس الذين انتشرت لغتهم فى أقطار عديدة حول مصر حتى بلغت مالطة . وهذه اللغة تعبر الآن عن مزاجنا ، وتقوم بالمعانى التى تختلج فى اذهاننا . أما اللغة الفصحى فهى « الهيروغليفية » التى يترجم كتابنا وطلبتنا اليها خواطرهم وأفكارهم ، كما ينقلونها أحياناً الى الانجليزية أو الفرنسية ويرطنون بالفاظها المحفوظة من الكتب

قال السير ولكوكس : « يسهل علينا أن نرى الاثر المخدر الذى تحدثه الالفاظ الرنانة التى لا تفهم منها لفظة واحدة فى نفس السامع . وسماع مثل هذه الالفاظ يقتل فى الذهن كل ابتكار بين أولئك الذين لا يقرؤون ، كما تقتله أيضاً فى نفس الطالب تلك الدروس التى تلقى عليه

باللغة الفصحى المصطنعة ، التى تبلغ الرأس دون القلب ، فتمنع من يتنسّمون العلماء فى هذه البلاد من التفكير البكر . فقد عشت فى مصر أربعين سنة فلم أجد فيها مصرياً يفكر فيها تفكيراً حراً . فان قوة المصريين الذهنية يستنفذها على الدوام جهدهم فى أن يترجموا مايقرؤونه باللغة الفصحى الى اللغة المصرية المألوفة ، ثم هم عند الكتابة يترجمون مافهموه بهذه اللغة الى اللغة الفصحى . وهذا العمل ضرب من التسخر الذهنى ... »

وأيضاً : « قضيت عشر سنوات حين كنت فى خدمة الحكومة المصرية ، وأنا أشرف على مدرسة الهندسة وأمتحن طلبتها ، وكنت أجد بين الطلبة من يعدون حقاً من الأذكياء ، ولكنهم كانوا يسيرون فى دروسهم ببلادة لأنهم كان يقرأونها باللغة الفصحى المصطنعة وليس باللغة المصرية الحية ، وكانوا لا يجدون أدنى مشقة فى فهم الرياضة النظرية ، فاذا طولبوا بالتطبيق عادت اليهم روح التسخر الذهنى . وكان ذوو الذكاء الواعد ينتهون فى الآخر الى لا شيء .. وأقول هذا عن أصدقاء ومعارف كان يمكنهم أن يتبوأوا مراكزهم بين مهندسى العالم فى الأقطار الأخرى لولا أنهم كانوا يفكرون بلغة ويكتبون بأخرى . اجل أن اللحم والدم لا يستطيعان كل هذا المجهود . وربما كانا يستطيعانه لو كان لكل منا رأسان ، ولكن الواقع أن لكل منا رأساً واحداً ، وهذا رأس المسكين لا يجد له مجالاً فى مصر . فلقد عرفت فى هذه البلاد طالبين ذكيين كان فى وسعهما أن يظهرا على هذا العالم ، ويتركا طابعيهما فيه ، لو أنه قدر لهما أن يكتبا باللغة التى كانا يتكلمان بها ، كما نفعل نحن الغربيين ولله الحمد فى غرب أوربا ووسطها وفى امريكا وفى سائر الأقطار ، حيث يفكر الناس ويبتكرون ويؤدون عمل الله على هذه

الأرض »

وأيضاً : « فى السنين الأولى للاحتلال الأنجليزى ، حدث خطأ فى قراءة خطاب انتهى بحدوث انبثاق فى قناة من قنوات الرى . وعند التحقيق قال مهندس المركز أن رئيسه أرسل اليه خطاباً لم يستطع أحد فى البلدة قراءته . ولما سئل الرئيس أجاب ان مدارس الحكومة تجعل من الطلبة مواشى ، حتى انهم لا يفهمون العربية الخالصة التى يكتب بها خطاباته . فالى هذا المدى المؤسف يبلغ بالناس حب اللغة فى هذه البلاد »

ولست فى حاجة الى ايراد اكثر من ذلك من خطبة السير ولكوكس . فما وجده هو وهو اجنبى ، يجده الوطنى المصرى ، ويشعر به أكثر منهما الاديب المصرى . ولست أشك فى أن اللغة العامية تفضل اللغة الفصحى ، وقد تؤدى أغراضنا الادبية أكثر منها . ولكننا لم نبلغ بعد الطور الذى يمكننا فيه أن نطفر هذه الطفرة ، الا أن هذا لا ينبغى أن يمنعنا من ايجاد تسوية بين اللغتين الفصحى والعامية ، بالغاء الاعراب مثلاً ، واستعمال بعض الالفاظ العامية

وهذه التسوية لا ترضى بالطبع السير ولكوكس وامثاله ، ولا هى ترضى أيضاً معظم ادبائنا . وأنا أقول للفريق الأول انه لم يظهر بعد بيننا أديب يستطيع أن يسوم الأمة اللغة العامية كما فعل رابليه حين ألف كتاباً لأول مرة فى اللغة الفرنسية سنة ١٥٣٢ ، وهدم بذلك مأثور أوربا الذى عاش أكثر من ألف عام . وأقول للفريق الثانى انى لا أعرف لغة عاشت كما هى منذ الأزل . واللغة العربية لن تشذ عن ذلك ، وقد آن لها ان تتطور . وأقول للقراء أننا للآن نرطن اللغة الفصحى رطانة ، ولم تُشربها بعد نفوسنا ، ولا أمل فى أن تُشربها لأنها غريبة عن مزاجنا . وقد عانيت

الترجمة الى اللغة الفصحى عدة سنوات ، فما رضيت مرة عن نفسى وارتضيت الترجمة . فانما نحن نؤلف ونعتقد أن ندعى اننا نترجم ، وذلك لأن هذه اللغة الفصحي هي لغة بدوية . والثقافة هى بنت الحضارة وليست بنت البداوة . فلهذا يشق علينا جداً أن نضع معانى الثقافة فى هذه اللغة سواء بالترجمة أم بالتأليف

فى فلسفة اللباس

فكرَ بعض أفراد الشبيبة المصرية حديثاً فى اختراع زى مصرى خاص لنا ، يصنع من منسوجات وطنية . وقد رأيت بهذه المناسبة أن أدلى بهذه الملحوظات

فاما ترقية الصناعة من منسوجات وغير منسوجات ، فهذا مايجب أن يوافق عليه كل مصرى ، ويدعو الى ترويجه . ولو كان فى ذلك بعض الخسارة عليه . وأما تغيير الزى الافرنجى الحديث ، فهذا مالا يمكن احداً عاقلاً متمديناً متهذباً أن يوافق عليه

وذلك لأن اللباس الذى نلبسه الآن ، والزى الذى نتزيا به ، هما ثمرة الحضارة الراهنة التى غمرتنا فى سبيلها ، واكتسحت امامها تقاليدنا القديمة . فاثبتت بذلك جدتها وبلى هذه التقاليد . ونقول بعبارة أخرى انه قد حدث « تنازع بقاء » بين هذه الحضارة الحديثة وهذه التقاليد العتيقة ، فانهزمت التقاليد وفازت الحضارة . وكان فوزها دليلاً على صلاحيتها

واللباس يتمشى مع العمارة والاثاث . فاذا فشا شكل جديد في العمارة ، رأيت أثره فى اللباس ، وفى أثاث المنزل . وسبب ذلك أن الذوق الذى يستحسن شكلاً خاصاً فى العمارة ، هو نفسه الذى يستحسن مثل هذا الشكل فى الاثاث أو اللباس

فاذا كنا نستحسن المنارة الدقيقة الرفيعة ، فاننا لاشك نستحسن الرجل الطويل النحيف . فاذا صار هو مثلنا الأعلى ، صرنا نلبس من الالبسة مايقربنا الى شكله من صدرية تحزق الوسط الى رداء محبوك

واذا كنا نستجمل الدار القوراء ، يتوسطها صحن رحب ، صرنا نستجمل الرداء الفضفاض ، كالجبة وماشابهها

واذا كنا نحب سذاجة الاغريق فى تماثيلهم ، صرنا نطلب مايشبه هذه السذاجة فى نسائنا

وكذا الحال فى أثاث المنازل ، نصنعه لكى يشاكل عمارتنا ولباسنا . فاذا كان البناء ضخماً كان الأثاث ضخماً . وهلم جراً

فالعبرة بالذوق . فاذا كنا نستجمل الضخامة فى اللباس ، استجملناها أيضاً فى العمارة وفى الأثاث . واذا كنا نهوى الدقة والسذاجة فى العمارة ، فاننا لن نفقدهما فى اللباس والاثاث

وكل هذا ينعكس أثره على الانسان نفسه . فاذا كان رجال الفن ، من مثالين ورسامين وبنائين فى أمة ، يعمدون الى الدقة والسذاجة فى بناء البيوت وصنع التماثيل ورسم الصور ، انعكس هذا الذوق على الأمة باجمعها ، فصارت تطلبه فى ملابسها واثاثها بل فى اجسامها . لأنها حينئذ لا تستحسن من الأشخاص رجالاً كانوا أم نساء إلا من نحفت أجسامهم . ولاتهوى من اللباس إلا الساذج المحبوك على الجسم . ولاتهوى من الاثاث إلا ماخلا من ضروب التعمل والتكلف

ومن هنا فائدة الاديب كائناً ماكان فنه الذى يمارسه . فاذا كان هو رفيعاً ، رسم للامة مثلاً عليا تنعكس عليها وتطبعها بذوقه . ففنه عندئذ يرفعها

ومن هنا يمكن القارىء أن يستنتج الاثر الذى يحدثه اللباس الشرقى الرحب ، الذى يلبسه الصينيون والهنود وبعض العرب ويقرنه الى العمارة الفاشية فى بلاد هؤلاء . ثم يقابل كل هذا باللباس الغربى المحبوك ، الذى يحزق البطن ، ويقرنه الى العمارة الفاشية عند الغربيين . فعند الشرقيين الذين ذكرناهم منازل قصيرة قوراء وأجسام سمينة . وعند الغربيين منازل عالية ضيقة وأجسام نحيفة طويلة

واللباس ايضاً كالعمارة دليل الحالة الاجتماعية . فاذا كانت الأمة ديمقراطية ، كانت أجور عمالها عظيمة . ولذلك لا يمكن أن تجد التطعيم فى أوربا لا فى العمارة ولا فى اللباس ولا فى الأثاث . لأن التطعيم يحتاج الى كد كبير دون الحاجة الى مهارة كبيرة ، فعامله يشتغل كثيراً ولا يحصل إلا على أجر صغير . ونحن هنا فى مصر نكلف أرخص عمالنا (فى الصعيد) بتطعيم اللباس بالتلى للسيدات ، كما نطعم أيضاً بعض الأثاث . وقد رأيت فى بعض دور طنجة فى مراكش أنهم يطعمون سقوف منازلهم ، ولا بدع فانه لا يزال عندهم عبيد ارقاء . وقد وجدت فى مدافن توت عنخ آمون اثواب مطعمة (ملبسة)

وقد قال هربرت سبنسر أن الأصل فى اللباس هو الزينة لا الفائدة . وهو لايزال كذلك عند الهمج . وعندنا أيضاً الى حد ما . فقد أنفقنا نحن فى مصر نحو ٧٥٠٠٠٠ جنيه على رباط الرقبة فى عام واحد ، مع اننا نعرف أنه أداة زينة لا فائدة منه . وكان أبو الطيب المتنبى يلبس نحو عشرة أثواب فى أشد الأوقات حراً ، ويكلف نفسه هذه المشقة لكى

يظهر بمظهر الوقار والجلال . ولكن كلما ارتقى الناس قلَّ اعتبارهم للزينة وقدروا الفائدة . فبعض النساء الأميركيات والانجليزيات يقصصن شعورهن ، ولا يعلقن الأقراط فى اذانهن ، ولا يتزين بالعقود أو الأساور ، وكذلك لا يلبسن المشد أو الأحذية ذوات الكعب العالى

وللباس تأثير نفسانى فى الانسان ، ولنذكر أن عمر بن الخطاب خلع عن نفسه لباساً رومانياً فخماً لأنه شعر منه بخيلاء لم يشعر بها قبلا ، وعاد الى لباسه البدوى حتى تعود اليه سذاجة نفسه . وعلى هذا القياس يمكننا أن نقول أن العقلية الاوربية يسهل على الافندى أن يتقمصها ، كما يتقمص اللباس الأوربى اكثر ، مما يسهل ذلك على الشيخ . وهى أسهل على « المتفرنج » الذى يلبس القبعة مما هى على الافندى لهذا السبب نفسه

وعلى هذا القياس أرى لغرامى بالحضارة الأوربية ، وهى حضارة العالم أجمع الآن ، أن أحث بنى وطنى على أن يلبسوا القبعة دون الطربوش . لا لأنها تقينا من الشمس والمطر ، وهو لا يقينا ، لأنها تبعث فينا العقلية الأوربية

واللباس يصنع الانسان كما قال شكسبير . واحياناً يدعوه نوع اللباس الذى يلبسه الى الخمول أو الى النشاط . فاللباس الأوربى يساعد الاوربيين على النشاط ، ولا يوافقهم على الاضطجاع والاستسلام للخمول ، كما يساعدنا الجلباب الواسع . والواقع أن جلبابنا هو لباس النوم عندهم . وهو أيضاً لباس النساء . والمرأة أقل نشاطاً من الرجل . ولعل هنا علة من علل خمول الشرق ، أو قل ان هذا الجلباب الواسع الذى يدعوه الى الخمول والدعة ، هو نفسه نتيجة مزاجه الذى يولده الحر فى نفسه من حب الدعة

الشباب وناموس التحول

جرثومة الفساد فى بذور الاصلاح

أهم صفة فى الاجسام الحية هى تحولها المستمر . بل ربما كانت هذه أهم صفة فى الجماد أيضاً ، وأن كان ايضاحها يدق على افهامنا وحواسنا . وصفة التحول هذه ظاهرة فى الاحياء ، لاتجد نباتاً أو حيواناً على حال واحدة فى دقيقتين متواليتين . فالحى دائم التمثيل والافراز والنمو ، لا تنى ذراته عن التجدد والاندثار . فهو فى هذه الساعة يختلف عما كان قبل ساعة ، وسيختلف عما سيكون بعد ساعة . أى انه فى تحول مستمر . والتحول اذا اطرد وتمادى عليه الزمن ، صار تحوراً ، كالجلد « يتقرن » اذا كثر احتكاكه . والتحور اذا اطرد وتمادى عليه الزمن فى جملة اجيال متتابعة ، صار تطوراً ، كالسلالة الداجنة من الحيوان تنشأ من سلالة برية قديمة

فالتحول هو ناموس الحياة الرئيسى ، واليه تستند جميع نواميس الحياة الأخرى التى هى فى الحقيقة صورة أخرى منه . فاذا قلنا أن التمثيل أو النمو هما من نواميس الحياة ، فاننا لانعنى أكثر من قولنا أن التحول قد

يكون أحياناً بالتمثيل وأحياناً أخرى بالنمو

ومن هذه الطبيعة العجيبة تنشأ لدينا صعوبة وضع القواعد للحياة ، وخاصة للحياة العليا التى تتجلى فى الانسان وجماعاته . فالقواعد والقوانين والمؤسسات كلها جامدة ثابتة ، وحياة الانسان مرنة ، فى تحول لا يقف لحظة . وكلاهما لذلك فى تناقض

وعلى هذا نقول أن الانسان على الدوام فى صراع مع مؤسساته ، هو صراع مرونة الحياة مع جمود القاعدة . ولكن التحول نفسه يحتاج الى قواعد ، لانه عندما تتفاقم الحالة بين قاعدة قديمة وتحول جديد ، نحتاج الى إيجاد قاعدة جديدة لكى نمكن الناس من السير فى منهج جديد

ومن هنا كانت فائدة المصلحين والانبياء والمشترعين والفلاسفة ، يؤسسون المؤسسات والقواعد العمرانية ، ويغرسون فى الناس العوائد الجديدة . ولكن من هنا أيضاً كان ضرر هذه المؤسسات والقواعد والعادات ، لأنها وان كانت قد اصلحت فى الأول ، فانها بدورها تجمد أمام مرونة الحياة ، فتعوقها عن التقدم . ومن ذلك يمكنك أن تقول أن جرثومة الفساد أصيلة فى كل اصلاح . فما من مؤسس أو قانون أو عادة يقصد بها خير الناس ، الا والشر كامن فيها ، والضرر يعود عليهم منها فى وقت من الأوقات

ولكن مع كل ماقلناه لا يمكن الناس أن يعيشوا بلا نظام . والنظام يقتضى وجود المؤسسات والعادات . انما المهم ألا تمسح عليها مسحة القداسة ، بحيث تكتسب حرمة تمنع الناس من ارتياء الآراء فيها ، وتغييرها وتبديلها عند اللزوم . فيجب أن يكون الناس احراراً فى تبديل قوانين الحكم والزواج والطلاق والتربية والامتلاك وسائر مايؤثر فى حياة الفرد أو السلالة . وذلك لكى نجعل هذه الأشياء تجارى الحياة فى

نحوها ، أو على الأقل تتابعها ، لأنها لم تخرج عن أن تكون آراء قديمة لأحد الناس أو لجماعة منهم حاولوا أن يبلغوا الحقيقة . وحقائق هذا العالم ليست مطلقة ، بل أغلب الظن أن الحقائق تتطور كما تتطور الأحياء . فليس شيء قدير بالتقديس والتضحية فى هذا العالم غير حرية الرأى ، لأنها هى وحدها الوسيلة لأن تجعل عادات الانسان ومؤسساته تتابعه ولا تعوقه . فأول مايجب أن يتجه اليه نظر مصلح فى مصر أو غير مصر من اقطار الشرق العربى ، هو الحصول على حرية الرأى ، وسائر مايتفرع من هذه الحرية كحرية الخطابة والاجتماع والصحافة . لأن هذه الحرية تكفل بتصادم الآراء ، تمحيص الأفكار وتبديل المؤسسات والعادات وفقاً لتحول الحياة

بقى أن نقول ان شباب الأمة أوفق لحريتها وأقبل لسياسة التحول من شيوخها . لأن العادة تثبت وترسخ بنسبة طول ممارستها . وليست المؤسسات والقوانين الا عادات أكثر رسوخاً فى الشيوخ منها فى الشباب ، لأنهم أطول عمراً وأكثر ممارسة لها . ولهذا السبب يتهم الشيوخ بحق بانهم جامدون ، ويتهم الشباب بالطفرة . وليست الطفرة فى الحقيقة سوى عدم احترام العادات الماضية . ولكن الطفرة على كل حال خير من الجمود ، وخاصة فى مثل قطرنا ، وفى مثل وقتنا ، حين نجد كثيراً من العادات الاسيوية تكاد تزهق أرواحنا وتعمل لابادتنا أمام الحضارة الأوربية التى تغزونا بشراسة الظافر واستكلاب القوى

وأظن أنى أقرر الواقع حين أقول ان نهضة تركيا تعزى الى الشباب ، وانها اقيمت على الرغم من الشيوخ . وليس هذا مدحاً لها وانما هو كما قلت تقرير للواقع الذى يرويه المحتكون برجال أنقرة . ومن البديهى أن تكون الحال كذلك . لأنه من المحال أن يعيش انسان فى عصر عبد

الحميد ، ويألف عادات الحكم الاستبدادى فى ذلك الزمن ، ويشيخ وهو يمارسها ، ثم يستطيع أن يطفر هذه الطفرة الكبيرة التى قام بها شباب الاتراك الآن

ولا حياة للشرق العربى الا بأن يسلم مقاليد أحكامه لشبابه

العشق : تحليل عوامل الحب

ليس فى عواطف الانسان ماهو أفعل فى شخصيته من العشق . فقد يشتد حتى يصل بصاحبه الى الجنون ، أو قد يدعوه الى الانتحار . أو قد تبلغ الغيرة ، وهى وجهة أخرى من وجهات العشق ، الى أن تدفعه الى ارتكاب الجنايات العظمى فى سبيل معشوقه . وليس بين العواطف ماهو أكثر تركباً من العشق . ففيه نرى الأنانية على أقواها ، ونرى روح الامتلاك تغمر صاحبها ، حتى ليظنَّ أن محبوبته ملك له يتصرف بها كيف شاء . كما نرى الايثار والتضحية ، حتى يعد المحب نفسه خادماً لمحبوبته ، يضحى بكل نفيس من نفسه أو ماله لاجلها

والمتتبع لتطور العشق فى الحيوان يرى فيه مثل مايرى المتتبع لتطور العقل ، كيف ابتدأ من ظهور الحواس البسيطة الى أن انتهى بهذه المعانى المركبة فى دماغ الانسان . وهى التى ترتفع أحياناً حتى تكاد تفشل أية محاولة لتحليلها . وكذلك الحال فى العشق ، نرى فيه من معانى الاثرة والايثار ، ومن ادراك صور الجمال والقبح ، مايصعب علينا رده الى تلك الظاهرة الجنسية البسيطة التى نراها فى الاحياء الدنيا

والحيوان والنبات كلاهما لم يكن به فى أول ظهوره أنثى وذكر منفصلان الواحد عن الآخر . ثم ظهر الجنسان ، ولكن التلاقح لم يكن يحصل باتصال الجنسين ، وانما بفرز الذكر الخلايا التناسلية فى الماء فتلتقى بالبيض الذى تفرزه الانثى ويحصل التلاقح . وفى مثل هذه الحالة لم يكن ثم مجال للعشق أو الاحساس به . وهناك بعض الحيوانات كالحلازين والسراطين يحتوى الفرد منها ، كما يحتوى بعض النبات كالذرة والقطن ، على خلايا الذكر التناسلية وبيض الانثى . وهنا أيضاً ليس مجال للعشق

وانما تبدو بوادر العشق عند انفصال الجنسين ، وعند سعى أحدهما ، أو سعيهما معاً ، يبحث كل منهما عن الآخر . فهنا تبدأ معانى الجمال ، وترتقى متساوقة مع معانى العشق . ومن هنا يلحظ القارىء أن حقيقة الجمال تتطور مع تطور الحيوان . فنحن نعتبر من الجمال بأعيننا وآذاننا صفات لا يعتبرها الكلب الذى يستند الى ماتلهمه اليه خياشيمه عند بحثه عن الانثى . وهذا القول يصح أيضاً عن الحشرات والحيوانات الدنيا أو بعضها ، لأن الاحساس بالجمال يرجع أصله الى عاطفة العشق مهما تجرد هذا الاحساس من معنى الانثى . فقد يكون سبيله الى الادراك الفعلى حاسة العين ، أو الأذن ، أو الخياشيم ، أو الجلد نفسه . ونحن أنفسنا على قلة اعتمادنا على حاستى اللمس والرائحة لا يمكننا أن نستجمل امرأة مهما كان مرآها بهياً لو أننا تصورنا انها خشنة الملمس أو كريهة الرائحة

والغريزة الجنسية أصل لاشياء عدة ارتقى بها الحيوان . فهى أصل الصوت الذى لم ينشأ الا لاهتداء الانثى والذكر . وهى على ذلك أصل اللغة والغناء . وهى أصل روائح المسك والزباد فى الغزال والقط . ثم هى فوق ذلك أصل العائلة فى الانسان

فاذا نظرنا الى الحيوان ، وجدنا بذرة الجمال وعلاقته بالعشق . فالطيور مثلاً لا تتطوس للانثى ، وتعرض عليها محاسن ريشها ، الا وقت التلاقح . وهى أكثر ماتغنى وتشدو فى هذا الوقت أيضاً ، مما نفهم منه أن جمال الريش والصوت انما نشآ الحاقاً بالغريزة الجنسية . وهذا ثابت فى أكثر الطيور التى تفقد ريشها وصوتها عقب الخصاء

وأوجه الشبه بين عشق الانسان والحيوان كثيرة ، حتى مايخرج منها عن المألوف ويشذ عن « الطبيعة » . فمن الناس من يقتصر على امرأة واحدة فى الزواج ، ومنهم من يتزوج أكثر من ذلك . وكذلك الحال بين الحيوان . فالكركدن والاورنج اوتان كلاهما لا يتزوج الا واحدة مدى حياته . وأرقى أحوال العشق وأغربها أيضاً نجدها بالطبع فى أقرب الحيوانات الينا وهى اللبونات والطيور . فهنا نجد الأمانة فى العشق ، حين يموت الزوج أحياناً أسى وغماً اذا أخذت منه زوجه . ونرى الأنثى المستذكرة فى بعض الطيور تقفز بعد التلاقح الى ظهر الذكر وتبقى عليه مدة مديدة ، كأن التعارف الجنسى لا يتم الا بذلك

وعواطف الرجل والمرأة فى الحب تختلفان ، ولكن هناك كثيراً من المشابهة فيهما ، بدليل انتقال بعض الصفات الجسمية الجنسية من المرأة الى الرجل وبالعكس . ففى الرجل ثندوتان تشبهان ثديى المرأة . وفى المرأة ينبت أحياناً شاربان . وبديهى أن هذه الصفات الخصيصة بالجنس لا تظهر الا ووراءها صفات ذهنية عصبية . وعلى هذا يمكننا أن نقول ان فى كل رجل شيئاً من الاستئناث ، وفى كل مرأة شيئاً من الاستذكار . ولكن هناك وجوهاً عامة للخلاف فى عشق الرجل وعشق المرأة . فالمرأة تستحسن من الرجال على وجه العموم الرجل الطوال ، القوى البنية ، البادى الصحة ، والرجل يحب من النساء على وجه عام المرأة الهيفاء ،

الضامرة البطن ، المخصرة المتناسبة الملامح

هذا على وجه عام ، بحيث يشترك جميع الناس من أى الشعوب فى هذه المعايير . ولكن لكل أمة مزاجاً خاصاً هو نتيجة بيئتها الاجتماعية والمناخية . فالزنجى يحب لمعة السواد فى بشرة خطيبته . وأهل نروج يقدرون دقة الأنف . ويمكن أن نقول على وجه الاجمال أن معيار الجمال الخاص لكل أمة يتوقف على تلك الصفات التى تدل على كفاية الشخص بحسب ماتفهمه الأمة من الكفايات . فللسمات العقلية ملامح تنم عليها فى الوجه . ومن هنا تجد الأمم على اشتراكها فى صفات مجملة للجمال تختلف فى صفاته الخاصة تبعاً للبيئة الاجتماعية والمناخية . فالانجليزى والزنجى كلاهما يعجب بالمرأة الطوال الهيفاء المتناسبة الملامح .ولكن الانجليزى يحب فوق ذلك البيضاء الدقيقة الأنف ، والزنجى يحب السوداء المنفسطة الانف . وكل منهما يتبع فى ذلك تلك الصفات التى تدل على كفاية للمعيشة فى البيئة المناخية التى يولد فيها

وعلى هذا يمكننا أن نقول ان هناك اعتبارات عالمية يشترك فيها بنو آدم فى تقدير الجمال . يلى ذلك اعتبارات خاصة بالبيئة ، حين يستجمل الانسان تلك الصفات التى تدل على كفاية الشخص لبيئة بلاده

ثم يلى ذلك اعتبارات فردية أو ذاتية أخرى تدخل فى اختيار الرجل للمرأة وبالعكس . فقد يعتبر أحدهما صورة فنية للجمال لأحد الرسامين ، فتنطبع صورتها فى ذهنه بحيث تتأثر بها عواطفه الجنسية . فاذا اختار زوجته ، لم يخطب الا تلك الفتيات اللاتى يوافقن هذه الصورة . وكذلك الحال فى الفتاة ، تنشأ معجبة بابيها ، فترسم فى ذهنها المثل الأعلى للرجولة على غراره . وقد تحدث فى حياة الانسان حادثة يكره من أجلها طرازاً بعينه من الجمال ، لا لأنه دميم فى ذاته ، بل لأن الحادثة بما

استشعرت النفس من الكراهية لها تستشعر أيضاً الكراهية لهيئة الشخص . بحيث اذا رأى شخصاً آخر له هذه الهيئة عينها كرهه ، وهو لا يدرى سبب ذلك . وهذا هو فى الاغلب سبب مانشعر به أحياناً من ثقل روح أحد الأشخاص وخفة روح شخص آخر دون أن نكلمهما

ساندرسون

من أحسن وألذ ماقرأت هذا الاسبوع (١٩ أغسطس ١٩٢٥) ترجمة حياة ساندرسون ، كتبها الاديب المعروف ولز . وفى هذه الترجمة غذاء دسم للاذهان وخاصة لأذهان المعلمين

فقد كان ساندرسون ناظراً لمدرسة شهيرة انجليزية تدعى مدرسة اونديل ، تولى نظارتها وقد تدركت الى الانحطاط ، وتركها وهى قدوة المدارس فى جميع أنحاء بريطانيا ، بل فى جميع أنحاء العالم . وقد اختط خططاً جديدة فى التعليم ، وأنتهج من المناهج مايخالف المألوف ، حتى أقام عليه عاصفة من الاحتجاجات . لم يلبث ، بعد أن ظهرت الفوائد التى يجنيها التلاميذ من هذه الخطط والمناهج ، أن هدأت وانقلب خصومه أنصاراً ، يؤيدونه ويدعون الى تأسيس المدارس على غرار مدرسة اونديل

وهذه المدرسة قديمة ، مضى على تأسيسها أكثر من خمسمائة سنة . أسسها أحد الابرار ، ووقف عليها أوقافاً ، ولكنها منذ أقل من أربعمائة سنة

تولى إدارتها نقابة للبقالين ، وهم لا يزالون يشرفون عليها للآن

والتعليم فى أوربا منذ بدء النهضة الحديثة قد تدرج وتطور . ولكن يمكن أن نستخلص من تطوره هذا ثلاث حقائق بارزة . فقد بدأت النهضة بالعناية باللغة الاغريقية واللغة اللاتينية ، ولاتزال هذه العناية ظاهرة فى المدارس القديمة . وكانت مدرسة اونديل إحدى هذه المدارس . فكان عنوان التربية الحقة عند ابناء السادة أن يعرفوا هاتين اللغتين قراءة وكتابة بل تأليفاً

ثم لما كان القرن السابع عشر ، أخذ تعليم الرياضيات ، كما تمارس الآن فى المدارس ، ينتشر . أى أنه عندما بدأ القرن التاسع عشر لم تكن مواد الدرس فى المدارس الأوربية غير هاتين المادتين الرياضيات واللغات القديمة . ومضى أكثر القرن التاسع عشر على هذه الحال . ثم نزعت المانيا نزعة علمية عنيفة فى المدارس ، حوالى أواخر القرن الماضى . وبدأ رجال الصناعة فى انجلترا يتوجسون شراً من المنافسة الالمانية ، ويبحثون عن أسباب الرقى الاقتصادى فى المانيا ، ويعزونه الى تعليم العلوم فى المدارس . وأخذ الرأى العام فى انجلترا يميل الى تعليم العلوم بدلاً من اللغات القديمة . وقد انتصر هذا الرأى الى حد ما ، ولكنه لم ينتصر الانتصار كله . إذ لا تزال للقديم مكانته فى جملة مدارس . ومما كان يجعل لتعليم اللغات القديمة مكانة فى المدارس ، ان الجامعات كانت لا تقبل أى طالب بها اذا كان يجهل هذه اللغات

ونقابة البقالين التى كانت تدير مدرسة أونديل هى هيئة قديمة ، وهى مؤلفة من تجار . وهى لذلك سريعة الاحساس بالمنافسة التجارية فى العالم . فلما شاع فى الربع الأخير من القرن الماضى أن المانيا تعلم العلوم فى مدارسها ، وأن هذا التعليم سيؤدى الى فوزها فى الصناعة ، رأى بعض

أعضاء نقابة البقالين أن يدخل هذه العلوم فى مدرسة أونديل . واشتد الحوار والمحاجة بين الأعضاء بشأن هذه البدعة . ولكن انصار الجديد تغلبوا ، وكانت اكثريتهم واحداً فقط

وعين المستر ساندرسون منذ ثلاثين عاماً لكى يغير منهج الدراسة ويدخل تعليم العلوم فيه

هذه هى المهمة الأولى للمستر ساندرسون ، وقد نجح فيها أكبر نجاح . ولكن غيره فعل مثل ذلك فى مدارس أخرى ، فليس فضله كبيراً من هذه الوجهة . وانما اكبر فضله انه غير خطة الدراسة واليك البيان :

كانت خطة التدريس فى القرون الوسطى ، والى بعيد النهضة ، قائمة على الاجبار واستعمال العصا . ثم ظهرت مدارس اليسوعيين ، فتقدم التعليم على أيديهم تقدماً عظيماً . بل هم أصحاب الفضل فى نشر التعليم فى اوربا ، بل ربما كانوا أول من أوحى الى الناس فكرة التعليم العام الاجبارى . وكانت خطة اليسوعيين تنحصر فى منع العصا ، وتحريك المنافسة بين التلاميذ بواسطة الجوائز . ولاتزال هذه خطتهم التى عم اصطناعها فى سائر المدارس . وجميع مدارس العالم الآن تجرى على مبدأ اليسوعيين ، وهو مبدأ المنافسة بين التلاميذ ، أما للحصول على جائزة ، واما للحصول على درجة . ولكن ساندرسون حاول أن يغير هذا المبدأ . ونجح فى محاولته نجاحاً كبيراً . فانه بث بين التلاميذ روح التعاون بدل المنافسة القديمة . فكانت الفرق تشتغل فى أى موضوع علمى أو أدبى . فيختص كل فرد بفرع من الموضوع ، ويبحث بنفسه مستقلاً ، ثم تجمع أبحاث جميع التلاميذ وتقرأ عليهم ، فينتفع كل تلميذ بمباحث الآخر . فعلاقة التلميذ باخوانه هى علاقة التعاون ، فهم ليسوا خصومه أو انداده الذين يجب عليه أن يفوز عليهم لكى ينال درجة أو جائزة ، بل هو يشعر

انه عضو فى هيئة كل أفرادها عامل معه لاتمام البحث ، فهو محتاج الى معونتهم كما انهم محتاجون اليه . وكل مافيهم من نقص أو اهمال ينعكس أثره فيه ، فكل عضو مضطر الى أن يناصح سائر الأعضاء وأن يخلص ، ويطلب نجاحهم ، ويعمل له

هذه هى الفكرة الجليلة الخطيرة التى أتجه اليها ساندرسون وحققها . والذى ألهمه هذه الفكرة هو نظام الهيئة الاجتماعية التى نعيش فيها . فانه كما هو ظاهر لنا جميعاً نظام منافسة ، يعمل كل منا فيه لمصلحته ، لا يبالى بمنفعة الآخرين أو ضررهم . ولكن المدرسة فى رأى ساندرسون يجب أن تكون انموذجاً للهيئة الاجتماعية . فاذا بثثنا فيها روح التعاون بدل روح المنافسة ، خرج منها التلميذ وهو مشبع بهذه الروح ، فيعمل لتغليب نظام التعاون على نظم المنافسة الموجودة الآن

هذه هى الفائدة الاجتماعية للخطة الجديدة التى اختطها المستر ساندرسون . ولكن ثم فائدة تعليمية لهذه الخطة ، وهى أنه لايمكن تلميذاً أن يهمل فى أداء واجبه ، بل هو لايمكنه أن يؤثر الكسل على أداء واجبه . فهو مكلف بالبحث فى فرع خاص من فروع الموضوع الذى تدرسه الفرقة ، ولن تتم الفرقة موضوعها إلا إذا أتم بحثه . فكل منهم مضطر الى مساعدته اذا هو عجز . ثم هو يدخل فيه بروح المتحمس الذى يرغب فى كشف الحقائق المجهولة . فوظيفة المدرس تقتصر فى هذه الحالة على الارشاد والهداية ، فهو يخبر التلميذ عن مظان البحث ، ويذكر له اسماء الكتب ، ثم يطلقه فى مكتبة المدرسة يبحث عما يشاء

وقد تمكن تلاميذ ساندرسون فى فرقة الميكانيكيات من أن يصنعوا متعاونين آلة بخارية قوتها ستة خيول ، كما صنعوا اشياء اخرى أقل أهمية من هذه الآلة . وكانوا فى درس البيولوجية (علم الحياة) مثلاً لا يقعدون أمام

المدرس يلقنهم المعارف الجافة بل يرشدهم الى الأماكن التى يستطيعون أن يجدوا فيها الاحياء المختلفة حية ومتحجرة . فيخرج كل تلميذ ، هذا بشبكة يصيد بها الفراش ، وهذا بمشرط ، وهذا يجول فى الشاطىء يبحث عن الأصداف ، ثم يأخذ كل واحد منهم فى درس ماوجده ، ويطبقه على مايجده فى الكتب التى يرشده اليها المعلم . ثم يكتب شرحاً وافياً يلقيه أمام التلاميذ والمعلم ، الذى يقف موقف الناقد فقط . أما المعلم الحقيقى فهو التلميذ يعلم اخوانه

وكذا الحال فى الموضوعات الأدبية ، يبحث التلاميذ بالتعاون وبروح البحث العلمى . فاذا كان نابليون مثلاً موضوع درس الفرقة ، أخذ كل تلميذ على عاتقه أن يدرس ناحية من حياة هذا الرجل . فتلميذ يبحث فى خططه الحربية ، وآخر فى اخلاقه الشخصية ، وآخر فى نتائج حروبه الاجتماعية ، وآخر فى أغراضه السياسية . وكل هذا بارشاد المعلم . ثم يعود كل تلميذ ويقرأ ماكتبه عن البحث الذى وكل اليه أمام سائر اخوانه . وهلم جرا

والآن يحسن بى أن اقتبس بضع فقرات من محاضرات ساندرسن وخطبه مما يزيد فى ايضاح التلخيص السابق . قال :

« يجب أن تكون المدرسة صورة للعالم الذى نحب أن نجده . ولنوضح ذلك بمثل المعمل . فأعمال المعامل هى أشق مافى المدرسة اذا مارسها التلاميذ بالروح التى أبغى بثها . وهاك ثلاثة شروط يجب استيفاؤها فى هذه المعامل :

« أولاً — يجب ألا يشتغل التلاميذ لأنفسهم وألا يكون شغلهم تمارين يقصد منها الحفظ . بل يجب أن يشتغل كل تلميذ لقضاء حاجة

من حاجات الجماعة الذين حوله

« ثانياً – يجب أن تتاح الفرصة لكل تلميذ بأن يقوم بنفسه بعمل أهم مافى التجربة ، وأن تكون كل التجارب فى المعمل

« ثالثاً – اذا ذهب التلميذ الى المعمل ينبغى أن يجد فيه عملا يملأ كل فراغه ، وألا يكون فى عمله تكرار ممل ، والا يشتغل لنفسه بل للجماعة » . وقال أيضاً :

« ان الغاء المنافسة بين التلاميذ يؤدى الى شىء آخر ، وهو أننا نجد جماعة ليس يعرف بينها العقاب .. وانى اعتقد من تجاربى واختباراتى أن العقاب جريمة . بل هو ليس جريمة فقط ، بل غلط فادح . وسبب ذلك انه طريقة سهلة رخيصة . لانه من السهل أن نعاقب كل من يرتكب ذنباً ، ولكن من الشاق الذى يحتاج الى التفكير والعناية والبذل أن نرتب الجماعة وننظمها بحيث ينعكس من هذا النظام أثر على الفرد يمنعه من أن يأتى أمراً مكروهاً .

« يجب أن تخرج المدارس رجالاً قد بث فى قلوبهم العزم على البحث عن الحقائق تلك الحقائق التى هى ضمان الحرية . وان يتوقوا فى بحثهم تلك الطرق التى تغشى على الحق »

وانا مضطر الى الاختصار فى هذه المقتبسات لكى أعالج ناحية أخرى من حياة ساندرسن . فأنه لما نشبت الحرب الكبرى ، تزعزع ايمان اكثر الناس ، وخاصة المستنيرين منهم فى جميع عقائدهم القديمة . فان هذه الحرب كانت بمثابة العاصفة تهب على الشجرة قد كمن فيها السوس ونخرها ، فتقع وتتحطم لأول ريح ، وكذلك الحال فى هيآتنا الاجتماعية ، كانت تتراءى لكل من ينظر اليها كأنها راسخة لا تتزعزع ، واذا بالحرب تفاجئنا ، فتهدم الأسس وتفضح النقائص وتكشف عن القروح . وأخذ

من ذلك الوقت كل انسان مفكر ، يحسن الظن بالهيئة الاجتماعية ، فى مراجعة نفسه يسائل نفسه عن هذه المؤسسات : هل هى مفيدة أم مضرة ؟

وهذا كان حال ساندرسن ، فانه خرج من دائرة التعليم الى السياسة والدين ، وأخذ يسائل نفسه : هل الامبراطورية الانجليزية توافق الديانة المسيحية أو لا توافقها . وهل المسيحية الآن توافق العصر الحاضر وترضى شهوات النفس العليا أم لا ترضيها

وخلاصة ماانتهى اليه انه أنشأ فى مدرسة أونديل مادعاه « معبد الرؤيا » . وقد مات قبل أن يتمه ، ولكن يؤخذ من ايضاح صديقه ولز أنه لم يقصد من هذا المعبد أن يتعبد فيه الناس جماعة ، ولا أن يكون غرفة محاضرات أو متحفاً . وانما قصد منه أن يكون مكان وحى للمفكرين ، فلم يكن به سوى كرسى واحد يقعد فيه من يريد التفكير لمصلحة الانسان برهة ، بعيداً عن الضوضاء والمصالح الشخصية . وكان المعبد غرفة كبيرة تحتوى على تاريخ الانسان الماضى ، وبه الخرائط التى تدل على تقدمه وخروجه من حال الحيوانية الى الانسانية ، بحيث يعبر عن قوة الابتكار فى الانسان ، وذلك لكى يكون لنا من الماضى مرآة ننظر بها الى المستقبل . قال ساندرسن :

« يمكن كل مدرسة أو كل حى فى مدينة أو كل هيئة صناعية أن تشيد معبداً تجمع فيه أيات الاعمال الانسانية العظمى وتقدم الانسان »

ولكن المعبد لسوء الحظ لم يتم ، وان كان كل منا يشعر أن نفسه تتشوق اليه ، وانه قد آن لكل انسان أن يغذى الجانب الروحانى من نفسه غذاء صحيحاً على النمط الذى أراده ساندرسن . لانه من البديهى

أن عبادة ايسيس العذراء وابنها هورس قد قدمت وبليت ولم يعد فيها
مقنع لنفس انسان متعلم مثقف

تدريس التاريخ

كان المؤرخون الى عهد قريب اذا وضعوا كتاباً فى التاريخ ، عمدوا الى الملوك والأمراء والقواد ، فترجموا حياتهم واختصوهم بتدوين أعمالهم ، ووصف عيشتهم جلت أو دقت ، لا يلتفتون إلى عامة الأمة ولايبالون بحالهم الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية . وهذا هو مانجده فى كتب التاريخ العربى والافرنجى القديمة ، بل بعض الحديثة أيضاً

وقد كان كارليل ، الأديب الانجليزى المعروف ، يزعم ان فلسفة التاريخ تقتضى درس العظماء دون العامة . لأن العظيم سواء أكان فيلسوفاً أو قائداً أو نبياً ، هو خلاصة الأمة التى نبت فيها . وهو جماع فضائلها . وهو النور الذى به تهتدى وعلى طريقه تسير . وهو لم يقصد فى ذلك الى قصر تاريخ الأمم على ملوكها ، كما هو الشأن فى كتاب العرب والافرنج إلى عهد قريب ، وانما كان يرمى الى درس تاريخ العظماء مهما كان نوع عظمتهم فى الأدب أو الفلسفة أو الحرب أو الصناعة

والعجب من كارليل انه كتب فى مدح الحداد قطعة من أجمل ماكتب

فى اللغة الانجليزية ، يصف فيها عبالة ساعديه ، وجده ، وأمانته ، ولزومه كيره ، وعظم منفعته للناس ، ومع ذلك كان اذا نظر فى التاريخ أهمله كأن لا شأن له البتة

وقد عارض سبنسر هذه الطريقة فى كتابه التاريخ ، ودعا الى أن يكون التاريخ شاملاً لجميع طبقات الأمة ، يبحث أحوالهم المعيشية والدينية والاقتصادية وما اليها

وضرب مثلاً على صحة مذهبه بالقائد أو الجندى المدرب ، يقف الى جانب المدفع الضخم ، ويضع القنبلة فى أنبوبته ، ثم يشد زنده ، فتنطلق القنبلة وتفعل أفاعيلها من الدمار . ويقول سبنسر أن هذا الجندى هو « العظيم » عند كارليل . ولكن قيمته فى التاريخ هى دون قيمة ذلك الرهط الذى سبقه ، واشتغل رجال منه فى صهر الحديد للمدفع ، واكتشافه ، وجلبه من مناجمه ، واختراع البارود ، وتنظيم الجيوش ، وما إلى ذلك . فمعرفة تاريخ جميع هؤلاء لا ينبغى أن تقل أهمية عن معرفة تاريخ هذا الجندى

فعظماء الأمم فى رأى سبنسر هم طفاوتها ، وزبدها الذى يظهر على السطح ، والذى لابد من ظهوره حتماً

وهذا أيضاً هو رأى المستر ولز صاحب التاريخ العام الذى ألفه منذ نحو خمس سنوات ، وارتأى فيه فضلا عن العناية بتاريخ العامة وسواد الأمة ازالة النعرة الوطنية من تواريخ الأمم ، والنظر الى العالم كأنه أمة واحدة . وقد أعجبتنى من ولز خاصة عنايته بأهل الرحلة ، ووصف رحلاتهم فى الأزمنة المختلفة سواء فى الشرق أم فى الغرب

وذلك لأن السائح يصف أحوال العامة ويذكر فى تجاربه الشخصية مايمكن أن يعد صورة لتجارب كل شخص حوله

ونريد مما تقدم أن نستخلص وجوب تغيير طرق تدريس التاريخ فى بلادنا ، بل طرق وضع الكتب التاريخية ايضاً للمدارس ولغير المدارس

فيجب أن ننزل من ذلك الأفق العالى ، حيث يقتصر المؤرخ على ذكر الملوك والأمراء ومن اليهم إلى ذكر أحوال الأمة . وليس هذا بالمستطاع على الدوام ، وخاصة عند تنائى الزمن كما هو الحال فى عصر الفراعنة . ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله. فعندنا من كتب السياحة والرحلة لابن جبير وابن بطوطة والمسعودى وأبى الفدا ، وسير العلماء الذين ارتحلوا فى سبيل العلم والدين أمثال البخارى والرازى والبغدادى وغيرهم ، مايبصرنا بأحوال العامة فى العصر الاسلامى . وكذلك أيضاً نجد فى كتب التراجم لابن خلكان وابن أبى اصيبعة وغيرهما مايدلنا على نوع المعيشة التى كان سواد الأمة يعيشها فى تلك الأزمنة

فمن هؤلاء وغيرهم يمكننا أن نضع تاريخاً جديداً للعالم العربى ، نرفع فيه سواد الأمم العربية إلى المستوى الذى يليق بهم ، ونزيل عن الملوك والأمراء تلك الأهمية التى نسبت خطأ اليهم . ونحن الآن نعيش فى زمن يطلب منا ذلك ، لأن الملوك قد نزلوا عن عروشهم ، وصار الحكم فى يد سواد الأمة . فمن المصلحة أن نجارى تيار العصر وننظر الى التاريخ نظراً ديمقراطياً

وبهذه المناسبة أقول أن مثل تاريخ الجبرتى من أنفع التواريخ ، فقد كان الرجل ملتصقاً بالعامة عاطفاً عليهم ، ينبض قلبه بالحب لهم والحزن لمشقاتهم . وهأنذا افتح كتابه جزافاً فأجده يقول عن حكومة محمد على فى سنة ١٢٣٥ هجرية :

« وفرضوا على الجواميس كل رأس عشرين قرشاً وعلى الجمل ستين قرشاً وعلى الشاة قرشاً والرأس من المعز سبعة وعشرين نصفاً وثلثاً

والبقرة خمسة عشر والفرس كذلك ». ثم أخذ يصف كيف أن الباشا احتكر الصابون والشحوم »

فمن هذه الفقرة يتبين القارىء ماكان يعانيه الفلاحون والعامة فى المدن من سلطة محمد على ، وكيف كان ينظر هذا الوالى الى مصر كما ينظر الانسان الى ضيعته ، يريد غلتها ولايبالى باساسها

ثم هناك من دقائق التاريخ مايجب أن يسترعى المؤرخ اكثر من الوقائع والحروب والفتوح وماإليها

فمن ذلك أن العرب عندما جاءوا مصر لم يكونوا قد ذاقوا الرز . وهذا معقول لأن الرز يحتاج فى زراعته الى كمية كبيرة من الماء لايمكن أن توجد فى بلاد العرب . ومن ذلك أن الحديد لم يوجد فى قبر توت عنخ آمون لأنه لم يكن قد اكتشف بعد . ومن ذلك أن العرب لم يعرفوا معنى الدستور أو المجالس النيابية ، مع انها كانت معروفة عند الرومان . ومن ذلك أن شارع الخليج الذى يمر به الترام الان فى القاهرة ، هو نفسه الخليج الذى حفره نخاو فرعون مصر ووصل به النيل بالبحر الاحمر . ومن ذلك أن القبط كانوا منذ ثلثمائة سنة فقط يتكلمون اللغة القبطية فى صعيد مصر

وقد يقابل الانسان نظام الموالى فى الاسلام عند العرب ، بنظامهم عند الافرنج فى القرون الوسطى . وقد يبحث أيضاً فى نظام الصناعات مدة حكم المماليك فى مصر ، وهل كان مثل نظام النقابات (الجيلد) فى أوربا فى ذلك الوقت

ثم هناك تلك الداهية الكبرى التى أصابت العالم الاسلامى بنزول المغول وهدم مدنيته على يد جنكيزخان وتيمورلنك . وما علاقة نزوح هذه الأقوام بسد الصين . فان الصينيين بنوا هذا السور لكى يحموا

أنفسهم من عارات هؤلاء المغول . وهل هذا السد هو سد يأجوج ومأجوج الذى ذكر فى القرآن ؟

وكثيراً ماتكون اللفظة واشتقاقها دليلاً على أصل من أصول المدنية ، فمن لفظة جاموس نعرف أن هذا الحيوان جاءنا من فارس . فهو مركب من لفظتين : « جاو » أو « كاو » أى البقرة كما هى فى الانجليزية الى الآن و « موش » أى أسود

ومن لفظة « عزبة » نعرف أن المماليك كان يملكون الاراضى فى مصر ، لا يتركون منها شيئاً لأهل البلاد ، لأن هذه اللفظة روسية شركسية بمعنى الضيعة . وأيضاً نجد فى لفظة « بوظة » الشركسية ، دليلاً على هجرة الشركس الى السودان ، وانهم هم الذين أدخلوا هذا الشراب اليه

ومن الحوادث الصغيرة مايبصرنا بقيمة الحرية الدينية ، أو الأمن العام فى عصر الدولة العباسية . فقد قتل الشاعر الأعمى بشّار لاتهامه بالزندقة . وكان المعرى ، وهو ينحدر فى النهر الى بغداد ، نهبت منه سفينته عنوة ، فلم يلجأ الى القضاء لكى ينتصف له بل لجأ الى الحاكم . وكانت ميادين قرطبة تكتظ بالنساء يجلسن لكى يؤجر ن فى نسخ الكتب بدلاً من المطابع

بمثل هذه الصغائر وأشباهها ، نعرف كيف كان يعيش العرب ، وماذا كانوا يأكلون . وماكان رأيهم فى المرأة والحرية ، وكيف كانت نظمهم الحكومية والعائلية والاقتصادية . وكل هذا جدير بالدرس أكثر من الفتوح والغزوات

وبعبارة أخرى يجب أن ندرس تاريخ الأمة بدلاً من أن ندرس تاريخ أمرائها

الثقافة الأوربية ومصادرها

فرق بين الثقافة وبين الحضارة . فقد يكون الانسان مثقفاً دون أن يكون متحضراً ، بل ربما تدعوه ثقافته الى كراهة الحضارة . فليس ينكر مثلاً أن ديوجينس الاغريقى كان مثقفاً ، عارفاً بتاريخ الاغريق وآدابهم ، ولكنه كان مع ذلك يكره حضارتهم ويؤثر العيشة البدوية الساذجة على رفاهيتهم وترفهم

فالحضارة خاصة بالمعيشة ، ومافيها من ترف ، أو على الأقل من رفاهية . أما الثقافة فخاصة بمعلومات الانسان من علوم وآداب ومعارف عامة . وقد يكون الانسان متحضراً خلواً من الثقافة ، كما هو الشأن فى أكثر أغنياء اوربا . وقد يكون مثقفاً دون أن يكون متحضراً

فالثقافة معنوية خاصة بالفكر ، والحضارة مادية خاصة بالمعيشة . وفيما يلى نرغب فى أن نوضح أصول الثقافة الاوربية ومصادرها التى صدرت عنها . واذا قلنا : « اوربية » فاننا نعنى « عالمية » لسيادة اوربا الآن على العالم

فالثقافة الاوربية أشبه شيء بالنهر الكبير ، تمده عدة روافد . فنحن نبحث ههنا عن هذه الروافد ومصادرها

وأول مايجب اثباته ، ان اوربا الحديثة لم تستفد كثيراً من « الشرق » من حيث الثقافة . فان الاغريق ، وهم أول أمة اوربية عنيت بالثقافة ، لم يكتسبوا شيئاً من المصريين . لان الفلسفة الاغريقية ، ثم الآداب الاغريقية ، لا تمتان بنسب الى فلسفة المصريين أو آدابهم . وقد أنشأ الاغريق مدرسة الاسكندرية ، ولكن علماءها كانوا كلهم من الاغريق . وكانت لغتهم اغريقية ، فلم يكن للمصريين فضل فى هذه المدرسة ، ولم ينبغ منهم واحد فيها . بل يجوز لنا أن نشك فى دخول المصريين فيها

ويمكن ان نقول ان اوربا استفادت ديانتها الراهنة من الشرق . ولكن يجب ألا نلقى هذا القول جزافاً . فالديانة المسيحية مؤلفة من عنصرين . احدهما خاص باللاهوت والآخر خاص بالاخلاق

فالاول وهو اللاهوت ، يرجع الفضل فيه الى المصريين . فان النظريات الخاصة بالثالوث المقدس ، أو التجسد ، أو البعث ، هى نفسها تلك النظريات التى كانت شائعة عند المصريين . ونظرية الثالوث هى أهم أركان الديانة المصرية القديمة . فان الربة ايسيس هى العذراء التى تلد هورس من رب الارباب اوزوريس . ويمكن أن نتبع تطور الفن المسيحى من مصر الى روما ، حتى تصير ايسيس وابنها هورس كلاهما مريم وابنها السيد المسيح

هذا من حيث اللاهوت ، أما من حيث الآداب المسيحية ، فالفضل فيها يرجع الى الاغريق . فان من يقرأ مجادلات الرسل يشعر بالروح الاغريقية التى كانوا متشبعين بها فى تبشيرهم الأمم الوثنية. فاذا طرحنا الدين جانباً بعد أن عرفنا أن مصر وأثينا يشتركان فيه على السواء ، بقى

أمامنا ثلاثة مصادر قديمة ، قد صدرت عنها الثقافة الاوربية الراهنة . وهذه المصادر هى :

أثينا فى الآداب والفنون والفلسفة

وروما فى القوانين والشرائع

والاندلس فى العلوم

ولننظر فى أول هذه المصادر . فالاوربيون الآن ومنذ نحو خمسمائة سنة يدرسون اللغة الاغريقية ، وينافحون عنها ، ويدعون الى درسها . فماذا اكتسبوا منها ، وماهى الفوائد التى تعود عليهم من درسها ؟

لم يكتسب الاوربيون من الاغريق شيئاً من العلوم ، الا القليل الذى ظهر فى الاسكندرية . فلست تجد خلاف ذلك نظرية علمية ترجع الى الاغريق ، أو قد أوحى بها أو بالبحث فيها قدماء الاغريق . كذلك لست تجد شريعة قائمة أو دراسة فى أوربا يعود الفضل فيها الى الأغريق . فان ثقافة الأغريق كانت خاصة ، بل منحصرة فى الفنون والفلسفة . ولا ولا ينكر أن فى ارسطوطاليس شيئاً من الروح العلمية . ربما كان البذرة التى أنبتت بعد ذلك مدرسة الاسكندرية . ولكن هذه الروح ماتت . أما الفنون والفلسفة ، فقد عاشت ، بل هى لاتزال حية الى يومنا هذا . وهى إلهام حى يوحى الى الأدب الأوربى الان . وما من أديب فى اوربا الآن ، يستطيع أن يؤلف فى الدرامة مالم يقرأ درامات الاغريق ، وما من مثال يشتغل بنحت التماثيل ، يمكنه ان يستغنى عن درس التماثيل الاغريقية . وكذلك قل فى الخطابة والشعر والفلسفة

وربما كانت ميزة الأدب الاوربى الحاضر ، على الأدب الشرقى ، هى تشبعه بالروح الاغريقية ، التى تجعله مجازفاً وحراً فى نزعته . ومما يعجب به الانسان أن المجددين فى الأدب أمثال نيتشه ، أو المجددين فى الفلسفة

أمثال شوبنهور ، كانوا متعلقين بالاغريق مدمنين قراءتهم . بل من الاوربيين من يعزو اكتشاف اميركا الى الادب الاغريقى الذى يحث على الاستطلاع والبحث . ولا أظنه يغلو فى قوله هذا . ومن يقرأ « جمهورية » افلاطون ، ويرى الحرية التى يتكلم بها عن الزواج ، أو من يقرأ « الاخلاق » لارسطوطاليس ، ويقف عند قوله ان الآلهة على قدرتها لا يمكنها ان تبدل النواميس الطبيعية ، يأسف لفقدان هذه الروح من الأدب العربى . والغريب فى العرب أنهم عنوا بعلوم الاغريق وطبهم ، وهو أسخف ماكتبوا ، دون أن يعنوا بآدابهم وفنونهم

وأصل آخر من أصول الثقافة الاوربية ، وهو ماكتسبته اوربا من روما . فان شرائع أوربا تستند الى القوانين الرومانية القديمة التى لاتزال حية فى المحاكم للآن . وكما أننا نحن سكان القاهرة نرى فى دار التمثيل درامة « أوديب الملك » . ونشهد برؤيتها على تفوق الأدب الاغريقى القديم ، كذلك يمكن أى محام فى القاهرة أن يزج القوانين الرومانية فى أى محكمة شاء ، ويجادل بها القضاة دون أن يجد من يعترض عليه فى ذلك . وهذه شهادة قوية على الاثر العظيم للقوانين الرومانية

أما الأصل الثالث القديم للثقافة الاوربية ، فهو الروح العلمية التى ظهرت فى الاندلس على أيدى العرب . فقد انغمس الاغريق فى النظريات الفلسفية ، وانتقلت هذه العدوى الى العرب ، ولكنها لم تغمرهم ، فأنهم أخذوا فى العمليات أى فى التجربة . وكان للتجربة العلمية عندهم شأن كبير ، وخاصة عندما أخذوا فى محاولة ايجاد الذهب من الزئبق ، فدرسوا أشياء صحيحة وسخيفة عن الكيمياء ، هى فى الواقع أصل النزعة العلمية الحديثة التى تتسم بالتجربة . ومما هو ذو دلالة فى النهضة الاوربية أن المجددين أمثال روجربيكون كانوا يهتمون بالاسلام

وبمعرفة اللغة العربية

هذه هى الأصول الثلاثة القديمة للثقافة الاوربية الحاضرة . ولكن ثم أصول حديثة أخرى لايمكن اهمالها يرجع الفضل فيها للانجليز

وأول ذلك مانراه من النزعة البرلمانية والحكم الدستورى . فالنزعة البرلمانية هى نزعة انجليزية محضة ، لا علاقة لها بالنظم الدستورية عند الرومان أو الاغريق القدماء . وحكومات الأمم الأوربية الآن ، قد نشأت على النسق الانجليزى الذى لا يمت بأية صلة بالقدماء . ومن يقرأ تاريخ الدستور الانجليزى ، وتطوره من الملوكية المطلقة الى الدستور المحبوك الاطراف ، يجده نباتاً انجليزياً لم يستمد أى غذاء من الرومان أو اليونان . وهذا بخلاف مانرى فى سائر الشرائع الشخصية والمدنية والتجارية ، فانها تستند الى مدى بعيد الى قوانين الرومان

ونزعة أخرى جديدة فشت فى الثقافة الاوربية ، وصارت أصلاً مهما من أصولها ، يرجع الفضل فيها أيضاً للانجليز هى نزعة التطور . ففكرة التطور الآن هى فكرة انجليزية . ولست فى قولى هذا اتجاهل فضل الفرنسيين فى محاولة الوصول الى هذه الفكرة . ولا مجهودات الالمان فى تعميمها . ولكنى أعتبر الفرنسيين لم يتخطوا المحاولات الاولى . وروح الالمان كما نفهمها من كبار فلاسفتهم ، هى الروح الفلسفية كما كانت عند الاغريق ، أى روح النظريات المجردة . أما فكرة تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، وتطور الأحياء والأشياء ، ففكرة انجليزية . ونسبتها الى الالمان حديثاً لم يكن الا ترويجاً لدعاية الحرب ، لايهام الناس بأن الالمان يؤمنون بالقوة وتنازع البقاء وما الى ذلك . ولكن الحقيقة أن الفلسفة الانجليزية هى أصل ذلك الايمان ، وهى صاحبة الفضل فى نشره فى

الثقافة الاوربية

والخلاصة ان الثقافة الحديثة الأوربية اكتسبت ديانتها من المصّريين والاغريق ، واكتسبت آدابها وفنونها من الاغريق ، أما قوانينها فمن الرومان ، والذى ابتعث الروح العلمية فيها ، أى روح التجربة ، أساس العلوم الحديثة ، هم العرب . وللانجليز فضل النظم الدستورية وفضل نظرية التطور

استنقاذ المدنية : ناموس جديد للعالم

من الأقوال التي يرددها الكتاب هذه الأيام قولهم ان العلوم قد تقدمت تقدماً عظيماً فى المستكشفات والمخترعات ، فى حين أن الأخلاق لم تتقدم ، بل بقيت متخلفة عنها . وهم يعنون بالاخلاق جميع علاقات الانسان بالانسان . يدخل فى ذلك معايرة الحق والعدالة ، واعتبار القوانين والانظمة ، ورأى الناس فى الزواج والعائلة وماإليهما

والواقع انه قد حصل بعض التقدم فى الاخلاق من هذه الوجهة . ولكنه لايمكن أن يقرن الى تقدم العلوم . فالتقدم فى الاخلاق ، وان كان وئيداً ، فانه كثيراً مايقف . أما العلوم فماضية تعدو ، تكشف كل يوم عن طور جديد أو نظرية طريفة

وهذا التفاوت بينهما مدعاة الى الارتباك والخلط فى النظم الاجتماعية ، وهو علة هذا القلق الذى يسود السياسة الأممية فى أوربا كما يسود أيضاً طبقات الهيئة الاجتماعية ، ويثير النزاع بين العمال والمموليين

وأظهر دليل على هذا التفاوت هو ذلك التقدم الهائل الذي بلغته

المخترعات الحربية ، فى حين أن الاخلاق الأممية لاتزال على المستوى الذى كانت عليه منذ خمسة أو عشرة قرون

وهذه العلوم يطرد تقدمها فى جميع فروعها ، بينما الأخلاق راكدة أو بطيئة التقدم . واذا استمر الحال على ذلك ، لن يكون الزمن بعيداً حتى تنفرج الهوة بين الاثنين ، ويختل نظام الهيئة الاجتماعية اختلالاً لا يُقال منه

فالمدنية الأوربية ، وهى مدنية العالم أجمع ، توشك أن تقع فى هوة الفوضى ، اذا لم تستنقذ بمطابقة قوانينها ونظمها الاجتماعية واخلاقها وآدابها على علومها ، بحيث يسير الاثنان جنباً الى جنب

وأول مايجب أن يُسعى اليه فى الحصول على هذه المطابقة ، هو قوانين حق امتلاك الأملاك . فأن العلوم قد احدثت من المخترعات ما أتاح لفئة صغيرة من الناس احتكار الثروات الضخمة ، والتصرف فيها دون الكثرة المطلقة من الناس ، الذين صاروا عمالاً يكثرون ويباع عملهم بالقرش والمليم فى سوق الأعمال . والناس ينظرون الى العامل الآن كما كانوا ينظرون اليه منذ الف عام ، مع أن العلم قد أحدث تغييراً كبيراً فى مركزه . فقد كان قديماً يشتغل ويأمل أن يكون ممولاً بعد قليل من الزمن . وكثيراً ماكان أمله يتحقق ، لأن رأس المال الذى كان يحتاج اليه لم يكن كبير المقدار . وهذا بخلاف الحال الآن . فان المصانع الكبيرة التى عمت فى زماننا ، لايمكن عاملاً مهما قتر على نفسه ، أن يجمع ثمنها . ثم أن الممولين هذه الأيام يختلفون عن الممولين فى قديم الزمان ، لضخامة ثروتهم ، وقدرتهم على الاستبداد بالعمال . وليس انشاء النقابات من جانب العمال ، الا محاولة منهم لمقاومة هذا الاستبداد . فنحن الآن نحتاج الى أن نتطور فى رأينا ، ونظرنا الى حقوق الامتلاك ، كما تطورت طرق الامتلاك

والعالم منذ آلاف السنين مقسوم الى أمم لكل منها وطن . وكلها تتباهى بوطنيتها ، وتعتبرها أكبر رابطة . ويعلم الصبيان فى كل أمة تاريخ آبائهم ومفاخرهم ، دون اعتبار للتطور الجديد فى علاقات الأمم ومصالحها المشتركة . فأن اسباب المواصلات قد ربطت الأمم برباط قوى ، يتطلب منها أن تسيطر عليها جميعها حكومةٌ واحدة . وهناك من الروابط الأخرى الراهنة ماله قيمة الوطنية ، مثل الرابطة التى تربط عمال العالم ، أو الرابطة التى تصل بين علمائه أو أدبائه . ويقترح بعضهم أن يربى الأولاد فى كل أمة على الولاء لعصبة الأمم . وأن يطهر التاريخ من النزعات الوطنية ، حتى تسود العقلية الأممية فى رؤوس الصغار ، وينشأ على اعتبار العالم أمة واحدة أو ولايات متحدة فى حكومة واحدة

وهناك تفاوت أيضاً بين تقدم العلوم وجمود الحال الروحانية فى الانسان . فليس يعقل أن يعيش الانسان آلاف السنين ، يتعاوره التقدم المادى فى جميع مايلابسه ومايزاوله . ثم يبقى الدين جامداً لا يتطور وفق التطور المادى

وقد عالج ولز الكاتب الانجليزى هذا الموضوع ، فقال انه يجب أن تؤلف توراة جديدة توافق العصر الحاضر ، تضعها فئة منتقاة من العلماء والفلاسفة والأدباء ، وينبغى تنقيحها كل عام وفق مطالب الحياة الجديدة ، ثم تترجم الى جميع اللغات فى العالم ، فتكون دستوراً للناس . فتتحد بذلك وجهات نظرهم وآرائهم ، فينتفى الخلاف ، ويحصل الوئام بينهم ، بدل التنازع الحاضر . ويجب أن تؤلف التوراة الجديدة على غرار التوراة القديمة . فيبدأ فيها بسفر التكوين ، فتستبدل بقصة آدم وحواء تاريخاً علمياً لتكون الأرض وظهور الحياة عليها ، وتطور النبات والحيوان ، وتنازعها البقاء ، وانقراض بعضها . ثم ظهور الانسان ،

ووصف جهاده للطبيعة ، والتغلب عليها وانتقاله من عهد الصيد الى الرعاية ثم الى الزراعة ، ثم معرفته المعادن ونشوء الصناعة

ويلى ذلك ناموس يسير عليه بنو البشر ، يتضمن أهم قواعد الصحة وصيانة الجسد ، وضرورة الرياضة التى لم تكن لازمة لليهود وهم يرعون أغنامهم فى المروج ، ولكنها تلزمنا الآن فى أشغالنا الراهنة . ثم يجب أيضاً أن يتضمن هذا القسم كل ماعرف عن الحكمة الجنسية ، والعلاقات الزوجية ، وماتنبغى معرفته عن آداب الامتلاك ، وعلاقة العمال بالملاك ، وقيمة المراهنات والمضاربات ، وآداب البورصة ، وما اليها مما يلصق بحياتنا

ثم يلى ذلك « نشيد الانشاد » فى التوراة ، ويقابله عندنا الآداب الشهيرة عند الأمم المختلفة . وهذه فى رأى المستر ولز لايمكن أدماجها فى التوراة الجديدة . وانما يجب تخير أحسن مافى هذه الآداب من الشعر والقصص ووضعها فى مكان الملحق بالتوراة ، لأنها أكبر من أن يحتويها كتاب على حدته ، يراد منه أن يكون فى متناول كل إنسان على هذه البسيطة وفى مستطاعه أن يقرأه

ثم يلى ذلك فصل التنبؤات . وهنا يقترح المستر ولز على ساسة الأمم أن يضعوا هذا القسم ، ويسجلوا فيه على أنفسهم ، وبمشهد من جميع الأمم ، مايتنبأون به عن مستقبل الأمم التى يسوسونها . لأنه ليس للسياسى حق فى قيادة أمته مالم تكن له خطة معينة ومثل أعلى

ثم هذه التوراة يجب أن تكون لها لجنة عليا ، لها من المكانة ما يقسر جميع الأمم على احترامها . ويجب أن لا تنى عن تنقيحها كل عام ، بما يوافق المستكشفات والمخترعات ، ومايروج تقدم العالم وينفى منه الاحقاد

والخلاصة انه لكى تنتفى الفوضى الراهنة ،يجب أن تجعل الأخلاق وفق المستكشفات والمخترعات العلمية الحديثة . وذلك بتعديل قوانين الامتلاك وتخفيف الروح الوطنية التى هى مثار الحروب فى كل وقت . وذلك بازالة النزعة الوطنية من التاريخ ، وفرض الولاء لعصبة الأمم أو أى هيئة أخرى عالمية على كل فرد من أفراد العالم . ثم لكى يتحد الناس فى نزعة صحيحة ، يجب أن يكون لهم ناموس جديد مؤلف على نمط علمى ، يربطهم جميعاً فى رابطة روحانية واحدة ، توجههم الى قصد واحد ، هو خير الانسالية ورفعها

الأمة هى الفرد

نظرة اجتماعية فى أثر الفرد فى الأمة

الأمة هى الفرد بالمعنى العلمى الدقيق . وما من بلاهة أو عقل ، وما من استقامة أو انحراف ، وما من صحة أو مرض ، أو قوة أو ضعف ، يكون فى فرد الا ويكون أيضاً فى الأمة

وذلك لأن كل فرد يتوزع دمه فى الأمة ، فيصيبها منه خيره أو شره . واذا أنت نظرت الى عشرة أفراد فى عرض الشارع ، فانك يمكنك أن تتأكد أن دماء هؤلاء العشرة لن يخلو منها فرد من الأمة بعد خمسمائة سنة . فاعتبر هؤلاء العشرة من حيث صفاتهم الجسمية والعقلية ، وأحكم على حال الأمة بعد خمسمائة سنة

ولكى يتحقق صدق ما أقول ، دعنا نفرض أن رجلاً سيتزوج هذا العام ويخلف الزوجان ولدين . وان كل ولد سيتزوج بعد ذلك ويخلف اثنين فقط ، أى بلا زيادة الجيل القادم على الجيل السابق . وأفرض أن عمر كل جيل ٢٥ سنة هكذا :

الجيل الأول	يعقب	٢
« الثانى	»	٤
« الثالث	»	٨
« الرابع	»	١٦
« الخامس	»	٣٢
« العاشر	»	١٠٢٤
« الخامس عشر	»	٣٢٧٦٨
« العشرون	»	١٠٤٨٥٧٦

فاذا رأيت فرداً كائنة ما كانت صفاته ، فاحكم انه بعد خمسمائة عام سيتوزع دمه فى اكثر من مليون نفس . واذا رأيت عشرة أنفس ، فاحكم بان صفاتهم الجسمية والعقلية ستظهر فى جميع أفراد الأمة بعد خمسمائة عام على فرض أن عدد الأمة يبلغ نحو عشرة ملايين نفس فى نهاية هذه المدة

وهذه القاعدة تتمشى عكساً كما تتمشى طرداً . ففى كل فرد منا العناصر الوراثية التى كانت متوزعة منذ ٥٠٠ سنة فى مليون نفس

ومن هنا تعرف أن الأمة عائلة واحدة ، وان فى أسلاف كل منا العدد العديد من رجال الفضيلة والرذيلة . فيهم الزانى والقاتل والعاهر والنصاب ، كما فيهم الشجاع والتقى والمستقيم والسخى . ففى دمك أيها القارىء المصرى دماء الملوك الفراعنة ، على وجه الحقيقة لا على وجه المجاز . كما أن فى دمك عرق دساس يرجع بك أحياناً أوقات غضبك الى دم أسلافك من السفاكين وغيرهم

ولكن هذا الحساب عبرة أخرى ، وهى أن الأبله الذى يتزوج تتوزع بلاهته بهذه النسبة أيضاً . ففى كل منا عرق من هذه البلاهة التى

توزعت فى الماضى ، بل فى كل منا عرق من الجنون ، ومن نزعة الاجرام وسائر الرذائل . كما أن فى كل منا عروقاً من النبوغ والشجاعة والاقتصاد ، ومن نزعة التفكير الحر وسائر الفضائل

من هنا نعرف قيمة وضع شرعة للزواج يمنع فيها كل ذى عاهة يخشى منها على عقول الأمة أو أجسامها من الزواج ، فالانسان مثل سائر الحيوان يمكن تأصيله بانتقاء الطيب فيه ، واستيلاده ، ومنع الردىء من التناسل . وليس الاصلاح مايقصد به تعبيد الشوارع ، أو نشر التعليم ، أو الوقاية من الأمراض ، أو الاكثار من السكك الحديدية ، أو اصلاح الأراضى فقط ، بل هو فوق وأهم من ذلك اصلاح اجسام الأمة وعقولها

وهذا الاصلاح هو مايعالجه علم اليوجنية . فهو يعرف للفرد اثره فى الأجيال القادمة . ويعرف ان اصلاح الوسط أو البيئة لا يقتضى اصلاح الفرد . وأن الأصلاح الحقيقى هو مايتناول التأثير فى جسم الانسان وعقله بتشجيع ذوى الكفايات على التناسل ، ومنع العجزة وذوى العاهات منه ، حتى تسير الأمة وكل جيل يفضل ماسبقه . وصراع الأمم فى المستقبل هو صراع بين عقول ابنائها . فالأمة الحائزة لاكبر مقدار من الذكاء ، ستكون بلاشك هى الفائزة السائدة على غيرها . واذا لم يكن فى الرأى العام أو رأى العامة فى الأمم « الشرقية » مايمنع زواج البله ، فيجب أن تمنعه الحكومة بشرعة خاصة

أحلامنا صورة شهواتنا ومرآة لثقافة أسلافنا

ليس شك فى أن الذريات القادمة ستضع « فرويد » فى صف « داروين » فان كلاً منهما فتح باباً لعلم جديد ، لايمر الآن عام الا والكتب التى توضع فى شرحه تعد بالعشرات . والعلماء فى كل مكان يتدارسونه ويكشفون مجاهله . فان « داروين » وضع أساس نظرية التطور ، ووضع « فرويد » أساس نظرية العقل الباطن . والنظريتان على كثرة ماكتب فيهما ، وعلى قدم الأولى التى ترجع الى سنة ١٨٥٩ وحداثة الثانية التى ترجع الى سنة ١٨٩٢ ، لاتزالان تثيران البحث وتكشفان من المجاهل مالاننتهى به من العجب منه . وبين العلمين علاقة بل علاقات ، ولكن يمكن أن نقول أن نظرية التطور كما فهمها « داروين » ترمى الى البحث عن طبيعة الجسم الانسانى وأصله وتطوره . أما نظرية العقل الباطن عند « فرويد » فترمى الى البحث عن طبيعة نفس الانسان وتطورها

وكما أن داروين قد أثار عاصفة من العداء والجدل ، فان « فرويد » يثير الآن اعصاراً من البغض والمقت بين بعض الناس . فقد كان أكبر

ماأحنق الناس فى عصر « داروين » قوله ان الانسان والحيوان من أصل واحد . والآن يقول « فرويد » ماهو أسوأ من ذلك : يقول ان الغريزة الجنسية هى أساس خواطرنا وأحلامنا ، وان حبسها هو علة الهستريا عند النساء والنورستينيا عند الرجال . وانها أيضاً العلة الوحيدة لصنوف الهوس التى تصيب بعض الناس . ثم يتدرج من ذلك الى أن الأساطير القديمة ترجع الى هذه الغريزة ، وان الانسان اهتدى الى اللغة عن سبيلها ايضاً

وأكبر مايعتمد عليه « فرويد » فى نظريته هو « التحليل النفسى » يحلل الأحلام والخواطر (أى أحلام اليقظة) كما يحلل اعراض الأمراض الهستيرية والنورستينية . وهو يرى أن الحلم يعبر عن شهوة ما ، ولكنه فى اكثر الحالات يعبر عن شهوة جنسية

ولكن فرويد ليس سلطاناً بل رائداً فتح الطريق ، وجاء بعده تلاميذه فاهتدوا بهديه اولا ، ولكنهم استقلوا عنه وشق كل منهم طريقاً لنفسه

ففرويد يسود المدرسة النمسوية ، ويكاد يقول ان الشهوة الجنسية هى كل شىء فى العقل الباطن . وأننا يجب أن نتوهمها فى الاحلام والخواطر والأمراض النفسية

ويسود فى زوريخ الاستاذ « يونج » وهو يخرج على « فرويد » من حيث انه يقول ان العامل الأصلى فى العقل الباطن ليس الشهوة الجنسية ، بل شهوة الحياة والرقى . ويتصوف أحياناً فيقول ان للأمم والشعوب عقلاً باطناً يتلخص فى كل فرد

أما فى انجلترا فان الدكتور « رفرز » يسود ، ويقود طائفة « المحللين للنفس » . وما يمتاز به اثباته ان الحلم قد يكون احياناً محاولة يحاول فيها العقل الباطن ايجاد حل يعاون به العقل الواعى . وانه لايدل فى كل

الحالات على شهوة كامنة ، وانما يدل على التردد واصطراع الشهوات .
ومن الانصاف أن نقول ان فى هذا العلم الآن بعض الخبط يرجع الى أنه فى طور البداية . ولكن من الحق أيضاً ان نقول اننا نشعر ونحن نقرأ مؤلفات هؤلاء العلماء ، انهم يكشفون لنا مجاهل ماكنا ندرى بها ، نقف امامها حائرين متعجبين لهذا العالم الغريب الذى كنا نجهله

وسيرى القارىء فى مايلى شرحاً لهذه النظرية مع اختبارات قليلة تجرأ كاتب هذه السطور على اثباتها وبحثها هنا

* * *

سرائر النفوس ومنطويات الضمائر تتضح فى الاحلام أكثر مما تتضح فى أوقات اليقظة . وهى أيضاً تتضح فى فلتات اللسان وقت الغفلة أو الاعياء ، وان كان وضوحها هنا أقل من وضوحها فى الحلم . لأن الانسان وهو يحلم يفقد وعيه ، فتنطلق أفكاره وتجرى خواطره طبق مشتهياته . وذلك لاننا ونحن فى يقظتنا نعمل بعقلنا الواعى فتتقيد خواطرنا بالظروف التى تحوطنا ، حيث ترانا مصطدمين بالحقائق التى لا نستطيع تبديلها . ولكننا ونحن فى النوم نحيا حياة غير واعية ، أى لا نعى ماحولنا ، فتنطلق خواطرنا لا تقيدها الحقائق ولا تصدمها ، فما انحبس فى أوقات يقظتنا من الخواطر والشهوات ، ينطلق فى أوقات نومنا ، وايضاً فى أوقات غفلتنا عندما نسهو ويخمد العقل الواعى فيطمو به العقل الباطن ويتغلب عليه ، ويُجرى على لساننا كلمة لم نكن لنقولها لو كنا فى وعينا التام

والخلاصة اننا فى يقظتنا نعمل بالعقل الواعى ، نعى مانفعل وما نقول . وفى نومنا وغفلتنا نعمل بالعقل الباطن ، فلا نعى مانهجس به .

ويجرى عقلنا الباطن على قواعد التفكير القديمة التى كان يجرى عليها أباؤنا فى العصور المتباعدة . وعلى قواعد التفكير عند الأطفال ، لأن الطفل يمثل السلف القديم أكثر من الشاب . ومن أحلامنا يمكننا أن نعرف اختبارات آبائنا الاقربين قبل الحضارة ، كما نعرف شيئاً قليلاً وخاصة وقت طفولتنا من اختبارات جدودنا قبل خروجهم من الأشجار واستقرارهم فى الكهوف . فالطفل وهو يحلم بأنه يقع من الشجرة أو من عل ، يستعيد ذكرى الجدود قبل مليون سنة ، ويجدد لنا اختباراً قديماً اختبرناه ونحن نمشى على أربع ونعيش على الاشجار ونقع منها . والطفل يمشى على أربع ويقع فى حلمه من مكان عال

لكن الشاب البالغ لا يمشى على أربع ولا يحلم انه يتردى من عل لأنه قد عدا هذا الطور . ولكنه فى احلامه يعيد لنفسه اختبارات الانسان الأول . فهو اذا اغتاظ من خصمه لم يعمد فى حلمه الى المحاكم فيشكوه ، بل يعمد الى طرق العصر الحجرى ، فيتناول فأساً أو مدية ويقتله

ومعنى ذلك اننا فى أحلامنا نسلك فى تفكيرنا المسالك القديمة التى كان آباؤنا فى العصر الحجرى يسلكونها . فاحلامنا الحديثة هى ثقافة آبائنا القديمة . ومما يبصر القارىء بذلك اننا قليلاً ما نستعمل اللغة فى الاحلام . فالحلم هو « الرؤيا » التى نراها . فهو ليس شيئاً نسمعه ، بل شيئاً نراه ، وذلك لأن اللغة حديثة العهد ، وكان آباؤنا القدماء أشبه بالخرس منهم بالمعربين . ثم مما يبصرنا أيضاً اننا نستعمل رموزاً فى الحلم ، تشبه الرموز التى يستعملها الأخرس عند الكلام ، أو التى يستعملها الهمج من الناس عند التعبير اذا أعوزتهم اللغة . والهمج الآن يمثلون أسلافنا القدماء

ولذلك فان درس الأحلام ومافيها من رموز عديدة سيبسط أمام أعيننا ثقافة آبائنا : كيف اخترعوا اللغة ، وكيف انشأوا الاديان وألفوا الاساطير

فالحلم فى طريقته يجرى على النمط القديمة ، ولكنه فى غايته يعبر عن أغراضنا الراهنة التى تشغل بالنا وقت يقظتنا . فاننا وقت اليقظة نتقيد بالظروف ، فلا تتحقق كل مشتهياتنا ورغباتنا . فاذا نمنا انطلقت هذه القوة المحبوسة . فنحقق فى النوم بالعقل الباطن ماعجزنا عن تحقيقه فى اليقظة . ولذلك فان أكثر ماتعبر عنه الاحلام هذه الرغبات والمشتهيات ، كالصائم يمنعه الطبيب عن الطعام فيحلم بتناول أشهى المأكولات . وكالشاب يتأجج شوقاً لحبيبته فيرى طيفها فى المنام . ولكن ليست كل الأحلام تعبر على الدوام عن شهواتنا ورغباتنا . فان العقل الباطن يحاول احياناً أن يحل المشكلات التى تعرض لنا وقت اليقظة . وأحياناً ينير الحلم طريق الهداية لنا فى حياتنا

وفى مايلى سأذكر للقارىء بعض الاحلام التى وقعت لى أو لاصدقائى لننظر اليها فى ضوء التفسير السابق :

١ – كان علىَّ دعوى مدنية قد صرت فيها عرضة لأن اخسر مبلغاً كبيراً ، وكان عندى مستند ينجينى منها ولكنى أضعته . فرأيتنى فى الحلم وأنا واقف أمام الخصم ومعى ثلاثة مستندات اتباهى بها امامه . وقد طربت بلذة الظفر به . وهذا حلم خلو من الصنعة كما انه خلو من الثقافة ، وكل مافيه انه عليه مسحة الطفولة . فقد وقف منى عقلى الباطن موقف الصبى المغفل الذى يقول : فيم الغضب والأسف ؟ أضعت ورقة فهاك ثلاث ورقات . فرؤياى هنا ساذجة . قد ارتد فيها

العقل الى طرق الاطفال ، فهى تشبه رؤيا الجائع الذى يحلم بالموائد المبسوطة أمامه

٢ – صاحب الرؤيا هنا شاب لم يتزوج فى نحو الثامنة عشرة . فهو اذن متهم فى كل مايحلمه فى غريزته الجنسية . رأى جملة مرار انه فى حفلة عرس يأكل سمكاً مزخرفاً مما يرى عادة فى الولائم . و تأويل هذا الحلم انهُ يرغب فى الزواج ، ولكن ظروفه تمنعهُ . فالسمكة رمز للمرأة ، واحساس الجوع قريب من الأحساس بالغرام . وعند سؤالى له : هل تعرف اغنية بها ذكر السمك ، اجاب على الفور « سمك يابنى لعبك فى المية جننى »

وعندما سئل : هل كان الطعام طيباً ؟ أجاب « لذيذ » . فأعدت السؤال بطرق مختلفة ، فكان الجواب « لذيذ » على الدوام . وهذا الوصف يدل على الأحساس الذى يخامر نفسه

وهذا الحلم ساذج أيضاً ولكن لغة الأحلام ، وهى الرموز ، واضحة فى الرمز بالسمكة للمرأة .

٣ – ف ... يتشاجر كثيراً مع زوجته ، وقد خطر له فى يقظته أن ينفصل منها بطلاق ، ولكنه كره ذلك للعار الذى يلصق بكل مطلق . فهو يرى فى حلمه انهُ فى زورق صغير يجذف ويخرج به الى البحر كأنه يتنزه . وكان قد أخذ هذا الزورق من صاحبه بالأجرة . فبينما هو عائد الى المكان الذى استأجر منه الزورق بعد أن لقى موجاً مضطرباً ، خطر له أن يلقيه الى الشاطىء فى نصف الطريق ويتركه ويخرج . وفعل ذلك . وبينما هو خارج ، وقع فى الطين وتلطخ بالوحل . فعاد الى الزورق وقال لنفسه : « لا يجب أن أذهب به الى صاحبه . ولكن يجب أن أريح

الزورق بأن أفتح له متنفساً فى طرفه » . وبينما هو يهم بالتجديف ، رأى فتاة تنزل فى زورق آخر ومعها عائلتها

وتأويل هذا الحلم أن الزورق هو المرأة أى زوجته . وهنا يجب أن نذكر أن العرب اطلقوا لفظ « الجارية » على السفينة ، وكلنا يعرف ان « الجوارى المنشئات » هى السفن . فالحلم يصف حياته الزوجية ، وانها سارت هوناً على الماء فى شبه نزهة . ثم حدث الخلاف الذى رمز اليه بالموج المضطرب ، فأراد أن يترك زوجته ، فحسب لعار الطلاق . ورأى أنه فى تركها يتلطخ بالوحل . والوحل هو العار . ثم حاول عقله الباطن ، أن يحل هذا المشكل ، فنصح له أن يستأنف حياته الزوجبة ، ويسير بالزورق بعد أن أشار عليه بالتفريج عن زوجته ، بأن يقلل من ضغط عواطفها . وعند ذلك رسم له الحياة الزوجية الهنية فى فتاة جميلة تسير بين اعضاء عائلتها . ففى الحلم شىء من الثقافة القديمة ، وهو الرمز للمرأة بالسفينة ، وشىء من الذكاء أبداه العقل الباطن فى نهى صاحبه عن الطلاق

٤ — هذا الحلم الأخير لى ، ابتعثه فى ذهنى وأنا نائم حادثة حدثت فى النهار . فقد وقع فى يدى كتاب جديد فتصفحتهُ ، فألقيته قائماً على الصناعة اللفظية مغرقاً فيها ، فألقيته باشمئزاز وانا أقول : الفاظ . الفاظ ، وفى نومى رأيت أنى صبى صغير ألعب وأنا حافى القدمين على جسر مصنوع من الخشب ، ثم نظرت واذا بجنازة عجيبة تسير امامى ، وكان الميت هو الشاعر الجاهلى لبيد الذى يقال انه عاش ١٤٥ سنة . ولم يكن ميتاً موتاً مألوفاً ، لأنه كان قاعداً فوق نعشه وهو فى جرم عشرين رجلاً ، والدم يسيل من أنفه ، وهو يقول الشطرة الثانية من هذا البيت :

ولقد سئمت من الحياة وطولها　　　وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟

ولكنه مع كلامه هذا كان ميتاً ، يتبع نعشه مشهد فيه رجال عليهم خشوع الجنازة . ونظرت اليه وأنا واقف على الجسر ، فشعرت بالراحة والعجب والخوف

وتفسير هذا الحلم انى أكره الصنعة فى الكتابة ، وكثيراً ماأقول فى الجدل بشأن أولئك الكتاب الذى يعنون بالألفاظ ، انهم يحاولون أن يجعلونا نكتب بلغة الجاهلية . وقلت مراراً ان العرب قد انغمسوا فى الصنعة ، ومضى عليهم اكثر من الف عام وهم فيها . فنشأ فى عقلى الباطن فكرتان :

١ – ان الصنعة تجعل اللغة غريبة عنا ، حتى لتشبه عرب الجاهلية

٢ – ان الكتاب العرب انغمسوا فى الصنعة مدة طويلة جداً ، فرمز عقلى الباطن الى هاتين الفكرتين بلبيد الشاعر ، وذلك لأنه :

١ – جاهلى ، ولأنهُ : ٢ – عاش عمراً طويلاً . ثم رسمهُ أمامى كما أشتهى أنا ، أى ميتاً ، لأنى أحب أن تموت الصنعة . وجعله ضخماً جداً رمزاً لطول عمره . وجعله ينشد أمامى هذا البيت لأن فيه معنى السأم من طول الحياة ، وأنا أيضاً قد سئمت الصنعة

ولكن بقى شىء آخر ، وهو انى فى منتصف الجسر . وعلى طرفى الجسر طريقان ، الطريق الذى حملت فيه جنازة لبيد وهو امامى ، وطريق آخر ورائى . فما معنى ذلك ، معناه ما أعترك فى نفسى فى السنوات الأخيرة من الولاء لثقافة العرب أو العداء لها ، وهل أتركهم وأسير فى الطريق الآخر الذى وراء الجسر ، وأقول باللغة العامية المصرية ، أو أقنع بأن لبيداً قد مات وان لنا لغة الآن هى غير لغة عرب الجاهلية ؟ دع عنك الشك فى موته

وليس ماشعرت به من « الراحة والعجب والخوف » سوى مايخالج ضميرى عند الكلام عن التجديد ، والشرق والغرب ، واللغة القديمة والحديثة ، وما أشعر به من الشك والتردد . والى هنا أنا قانع بهذا التحليل ، ولكن يمكنني أن أزيد عليه ان عقلي الباطن اختار لبيداً لعلاقة لفظية . فاني مشغول هذه الأيام بقراءة بعض الكتب فى التحليل النفسى . ولا يخلو منها كتاب من ذكر لفظة « لبيدو » وهى القوة النفسية التى تبتعث الخواطر والاحلام . وكان قد خطر فى بالى أن أعرب هذه اللفظة وأجعلها فى العربية « لبيد » وقلت لى نفسى : أنى كما أشعت ثقافة وطوبى ومصرلوجية وبيوجنية ونفسلوجية وغيرها ، فأنى أشيع هذه اللفظة . فهجس لى هاجس عن مقاومة الرجعيين والجامدين . فدخلت اللفظة فى مادة الحلم

العقول الأربعة لنفس الانسان

يسير النفسيلوجيون من المدرسة الحديثة سيراً حثيثاً فى استكناه العقل الانسانى . ونعنى بالمدرسة الحديثة اولئك الرواد فى هذا الميدان الجديد ، أمثال فرويد ويونج ومكدوجال ورفرز وبودوين ، رجال العقل الباطن الذين يدرسون الاحلام والخواطر والجنون ، ثم يعطفون على الانسان فيدرسون العقل الواعى والأساطير ومنشأ اللغات والاديان بما استخلصوه من هذا العلم الجديد

وليس غريباً أن ندرس المرض لكى نفهم الصحة ، بل يكاد لا يكون هناك طريق آخر نفهم به الصحة الا من طريق المرض . فاذا وقفنا على التيار الذى يسير بعقل المجنون ، وأدركنا بعض غاياته ، أو اذا درسنا أحوال السكران وهو يتدرج من اللعثمة البسيطة الى العربدة ثم الى الخمول . واذا درسنا أيضاً خرف الشيخ وقرناه الى مخاوف الطفولة ، أمكننا أن نقف على العقل السليم : ماهو وكيف نشأ . وذلك لأن حالات الضعف من الغفوة العارضة التى تتوارد فيه الخواطر ، الى العقل ، الى السبات غير العميق ، حين ينشط العقل ويجعلنا نحلم ونرى

الرؤى ، الى نشوة الخمر التى تبيح لنا ماتكف أنفسنا عنه وقت الصحو - كل هذا يجعلنا نفهم أن لنا غير عقل واحد فى رءوسنا ، بعضه يغفو وبعضه ينام ، وبعضه يصحو فى غير اختلاف ، بل احياناً فى ائتلاف عظيم . والواقع أن العقل الانسانى حى قد أضمر فيه جملة احياء . وأقوى هذه الأحياء هو أقدمها فى تطور الانسان ، واضعفها هو أحدثها

وهذا الاختلاف فى القوة والضعف بين هذه العقول المضمرة فى نفوسنا ، يتضح عندما نمرض أو نشرب الخمر ، فنلقى أنفسنا عند أول النشوة قد زايلتنا قوة الصبر على الدرس وانعام النظر . فلانستطيع أن نقرأ كتاباً فى الفلسفة أو العلم ، ولكنا يمكننا أن نقرأ قصة . ثم اذا زدنا شرباً احتشدت برءوسنا أفكار همجية ، فنضحك ونبكى كالاطفال . وقد نرتكب من الجرائم أو الأفعال ماهو أشبه بالمتوحشين . وانما ذلك لأن العقل الحديث ، عقل الحضارة والثقافة ، لم يرسخ بعد فى نفوسنا رسوخ العقل القديم ، عقل الجدود من ناس وحيوان . فاذا أصابتنا نشوة الخمر ، زايلنا هذا العقل ، وعدنا نستند الى العقل القديم الذى لا يتزعزع بهذه السرعة . وكذلك الحال عندما نغفو أو نمرض أو نحلم ، فان العقل الباطن ينشط ، فنرانا نفكر فى أشياء نضحك منها ونحن فى وعينا ويقظتنا . فنتخيل مثلاً اننا ملوك أو أغنياء ، أو اننا نقتل خصماً لنا نكرهه ، أو نحو ذلك من خيالات العقل القديم الرابض فى رأس كل منا

والحقيقة أن فى رأس كل منا نحن أبناء القرن العشرين جملة عقول ، تتسلط على نفوسنا ، وتعمل لسعادتنا أو لشقائنا . وهى كلها من تراث الآباء ، مع القليل الذى يجدّ فى نفس كل منا مما هو مضمر فى الحياة يسمو بنا نحو الرقى والكمال

١ – عقل الحيوان

وأول هذه العقول وأقدمها عقل الحيوان . فقد عشنا ملايين السنين ونحن حيوانات ، ولذلك فان تفكيرنا مشرب بعقل الحيوان . وهذا يبدو لكل منا اذا سلم قياده لخواطره ، فهناك ينساب هذا العقل فيخيل لنا الأكلة الشهية أو المرأة الجميلة . لأن هاتين الشهوتين هما محور الحياة عند الحيوان ، فانه لا يعيش الا من أجلهما . وكل منا يعرف أن معظم تفكيره وهو فى سن المراهقة انما كان فى المرأة . وهذا يتسق مع مانراه من الحاح هذه الشهوة على الحيوان ، حين تتقاتل الذكور وتموت من أجلها . وانما تخف هذه الشهوة عندما يخرج الانسان من طور المراهقة الى الشباب ، ثم الى الكهولة . وذلك لأن الانسان من بدء تكونه جنيناً الى أن يحمل الى القبر ، يمثل فى نفسه تلك الأطوار التى مرت بالأحياء قاطبة من بدء ظهورها فى العالم الى الآن . فهو فى باطن امه حيوان رابض ، غائب الذهن ، أخرس ، منطرح كالسمك . ثم لا همّ له بعد أن يولد الا الطعام . وهذا هو الشأن فى تطور أنواع الحيوان كلها . فانها قضت فترة طويلة وهى لاتعرف الحب ، بل لايزال بين الأسماك مايلقى الذكر بذره فى الماء كما يطرح النخل لقاحه للريح . ثم يظهر الحب والعائلة ، فيخرج الصبى من الشغف بالحلوى والنهم للطعام ، الى احساس الحب للجنس الآخر

ولكن الحاح هذه الشهوة الجنسية يخف بالتقدم فى السن . وكما أن الشاب يخرج من طور الطفولة من حيث الطعام ، فلا يجعل للنهم من

السلطة عليه مقدار ما للصحة . كذلك الكهل يخرج من غرام الشباب والحاح الغريزة الجنسية الى تسليط العقل الحديث ومراعاة المصلحة العائلية

ولكننا فى خواطرنا وأحلامنا ، كما فى نشوة الخمر نفكر كثيراً بعقل الحيوان . يجرى خيالنا وراء الأكلة الشهية ، كما تنتفض أعصابنا عند رؤية الانثى الجميلة

٢ – عقــل الهمــج

اذا كان عمر الانسان نصف مليون سنة على هذه الأرض ، فقد قضى ٩٩ فى المائة من هذه المدة وهو همجى أخرس أو شبيه بالأخرس . لا يحمل من الآلات الا اجفاها ، يعيش منعزلاً لا يعرف الاجتماع ، حظه من الثقافة قد لايزيد عن حظ طفل عمره ثلاث سنوات ، يقتل خصمه من أجل جذر من اللفت ، ويأكل العصفورة أو الصرصور وهو حى . يقتل زوجته اذا رآها آثرت نفسها عليه فى ثمرة فجة أو بضعة من لحم . يخاف طول وقته ، يخشى الظلام والوحوش ، وينتفض من تهافت ورقة جافة ، أو من رؤية ثعبان أو قنفذ

وهذا الانسان هو أبونا الحقيقى ، ومنه ورثنا أكبر تراث . ولشدة مانعانى الصعاب حين نريد أن نتخلص مما أورثنا هذا الهمجى القديم . فنحن كلنا نخاف ، ونعرف مع ذلك أنه لا فائدة من الخوف فى حياتنا الحاضرة ، وأن أكبر مايعين الطاغية على الطغيان هو عرفانه بهذا

الاحساس الكارب الذى ينساب تحت الجلد فشعريرة مجنونة لا نعرف كيف نقفها . ثم هذه الجرائم التى ترتكب كل يوم ليست فى الواقع سوى غريزة هؤلاء الآباء قد طغت على ثقافتنا الحديثة ، والغيظ أو الحقد كلاهما يعمل فى النفس عمل الخمر ، فتستيقظ كفاياتنا القديمة وتكبت كفاياتنا الجديدة . وكم تمر بنا ساعات نتذكر فيها اهانة لحقتنا من أحد الناس ، فنرى يدنا تنقبض ونحن لا ندرى ، ثم يجرى خيالنا بالعصا الغليظة ننزل بها على أم رأسه ضرباً وخبطاً . ونحن نصحب هذا الضرب باللعنات الدسمة . ونشعر عندئذ بالراحة . والواقع اننا نستريح لاننا نرضى بهذا الخيال ، هذا الجد الهمجى القديم الذى يضمره كل منا فى نفسه ، والذى نكبته احياناً فى يقظتنا ، فيغتفل عقلنا الواعى ويبدو خواطر لذيذة أو أحلاماً نرى فيها هذا الخصم مقهوراً أو مقتولاً . وقد مضى على الانسان نحو ٧٠٠٠ سنة وهو يعيش مجتمعاً له ثقافة الزراعة ، ولكنه لما يمح هذا العقل الهمجى القديم . وليست الشرائع الا محاولات لمحوه أو كبته فى نفوسنا

٣ – عقل الثقافة القديمة

وعقل ثالث تنطوى عليه نفوسنا ، هو ثقافة آبائنا منذ أن أخذوا يتحضرون بالزراعة فى الآلاف القليلة من السنين الماضية ، وقبيل هذا التحضر بقليل حين عرفوا الصيد واجتمعوا يحتوشون الوحش . وعرفوا شيئاً من البداوة التى وصلت مابين المعيشة الهمجية الانفرادية والمعيشة

الزراعية الراقية . وفى هذه المدة تثقف الانسان بأشياء عدة . فعرف اللغة والكتابة والبناء ، والمحرمات فى الزواج والامتلاك ، وعرف الحرب والصناعة والطبخ والخبز . ثم نشأت له أديان ، ونبتت عليها آداب من شعر وقصص وأساطير . وهذا هو عقل الحضارة القديمة ، عقل الأدب القديم

واذا قلت عقل الادب ، فانما اقصد به عقل الخواطر . فان الادب القديم يختلف من العلم بأنه يجرى مع الخواطر ، لانه عند التحليل لا يعدو أن يكون خيالات العقل الباطن ، تجرى بلا تكلف أو عناء فى قصيدة أو فى قصة . ومن هنا نجد أن الكتب القديمة هى كتب آداب ، من اشعار وأساطير ، وليست كتب علوم . لأن « هوميروس » صاحب الالياذة يسبق على الدوام « ارخميدس » صاحب المخترعات والآلات . وهذه قاعدة تجرى على اطلاقها عند جميع الأمم . وماذا نعرف نحن عن عرب الجاهلية سوى الأشعار ، وماذا نقرأ من مؤلفات المصريين القدماء سوى قصصهم وأساطيرهم ؟

فالأدب هو موضوع كتب الحضارات القديمة ، لانه ثمرة الخواطر السائبة التى لا يقفها نقد ، أو تعوقها مراجعة ، أو يعتورها تحقيق

وكل قارىء لهذا السبب يحب هذا الأدب ويقرأه ، لأنه كما أوضحنا آنفاً أقدم فى نفس الانسان من العلم . فالعقل الأدبى يجب لذلك أن يسبق العقل العلمى . وتجارب الفرد هى صورة مصغرة لتجارب الأمة . ولكن كما أن الكهل يعدو طور الغرام الملح الذى يغمر نفس الشاب ، ويشرع ينظر الى الحب نظر المصلحة العائلية ، كذلك العقل العلمى الذى هو عقل الثقافة الحديثة قد يشرع يتغلب على العقل الأدبى القديم

ونحن فى خواطرنا وأحلامنا نؤلف القصص ، ونحن أيضاً فى حبنا للطبيعة ، للحقول والزراعة والجبال ، وللحروب ، وللوطنية ، والخطابة ، وابهة الملوكية ، ومفاخر المال ، والسطوة ، انما نفكر بعقولنا القديمة عقول هذه الحضارة البائدة . ولذلك يلذ لنا أن تجرى خواطرنا هاملة سائبة فى هذه الأشياء كلها

٤ – عقل الثقافة الحديثة

عقل الثقافة الحديثة هو العقل الجديد ، عقل العلم والاختراع والاكتشاف . وأنت عندما تريد أن تستكنه روح القرون الوسطى ، وتحب أن تعرف ماذا كان العقل الغالب فى تفكير المفكرين فى تلك القرون ، سواء فى الشرق أم الغرب ، نجد أن هذا العقل انما كان يتهيأ للنهضة العلمية الحديثة . فقد خرج من الأدب القديم الى المجادلات اللفظية التى تبدو لنا الآن عقيمة ، لاهى بالأدب ولاهى بالعلم . ولكنها كانت فى الواقع تهيؤاً للتحقيق العلمى ، وخروجاً من الاستسلام لخواطر الثقافة القديمة . لان تلك المجادلات التى تجد بذرتها فى ارسطوطاليس ، والتى تجدها أيضاً فى كتب الغزالى وابن رشد وكتب اللاهوتيين من الاوربيين ، انما كانت شحذاً لهذا العقل الجديد الذى شرع يشرق على العالم . يهجر الأدب ويطلب العلم . وهذا التحقيق فى الالفاظ والتعاريف ، انما كان رياضة ابتدائية للتحقيق فى الحقائق ذاتها على النحو

الذى تكون فيه رياضة الجندى فى ميدان ثكنته تهيؤاً للحرب فى المعركة

فالعقل العلمى هو أحدث عقولنا الأربعة المضمرة فى نفس كل منا . وهو لذلك أقل ثباتاً ، لم تضرب له عروق ، ولم تسبق له فروع فى أنفسنا . وكأس واحدة من الخمر تجعله يخمد فى رءوسنا . فليس منا من يمكنه أن يقرأ كتاباً علمياً فى وصف آلة وهو منتش بعض الانتشاء من الخمر . ولكن كأساً وكاسين لا تمنعاننا من قراءة القصص . اجل ولا من قراءة الشعر . بل ماذا أقول ؟ أليس عندنا شعراء ينظمون الشعر وهم سكارى ؟ وفى السكر تجرى الخواطر سائبة هاملة ، فهل بعد ذلك نحتاج الى برهان لكى نقول ان الشعر والأدب كله من الخواطر ؟

ولكن يجب أن نمضى فنقول ، ان النشوة البسيطة التى لا تمنعنا من تلاوة الشعر وقرضه ، اذا استحالت سكراً ثقيلاً ، جعلتنا نعربد . لانها تخرجنا من الثقافة القديمة الى همجية الجدود قبل اى ثقافة أو حضارة . فاذا اشتد السكر فنحن عندئذ لسنا همجاً فحسب ، بل حيوانات نفكر فيما يفكر فيه الحيوان فقط ، بل الحيوان الأعجم . لأن الخمر تعقل لساننا

وهذا كله يتسق وما قلناه آنفاً ، من أن نفس الانسان تنطوى على أربعة عقول أحدثها العقل العلمى الذى يستقرىء ولا يعرف العاطفة . ثم يليه عقل الثقافة القديمة ، عقل العواطف والشعر والأدب والاساطير والامجاد الوطنية والزراعة والحروب . ثم يليه ماهو أقدم منه ، وهو العقل الهمجى . وأخيراً نرى ارسخ عقولنا وأقدمها وأثبتها فى نفوسنا ، وهو عقل الحيوان

لمحة فى الطبيعة

من اخطائنا أننا نتوهم أنفسنا فى الطبيعة ، فنعكس فيها صورتنا . فنعتقد مثلاً أن الأحياء تسعى فى النهار وتنام فى الليل كما نفعل نحن . ولكن الحقيقة أن معظم أحياء العالم من هوام وحشرات وسباع تسعى ليلها وتنام نهارها

واذا قيس الليل بالنهار فى اعتبار الطبيعة من حيث نشاط الحيوان وهدوئه ، كان الليل وقت السعى والحركة ، وكان النهار وقت الدعة والسكون . ونحن نعرف ذلك فى بيوتنا وقرانا وحقولنا . فالبعوض مثلاً لا يهيج إلا فى الليل ، ولا تسلطه علينا الطبيعة الا ونحن نيام فى الظلام . وكذلك الصراصير والخنافس لا تدب الا وقت الظلام . فالمطبخ خلو منها مادام ضوء النهار يغمره ، فاذا كان الليل وذهب النور ، خرجت الحشرات تتقمم كناسة المطبخ

وكذلك تفعل سائر الحيوانات فى حقولنا . فالثعبان لا يسعى فى طلب البيض والعصافير والجرذان الا عندما يحميه ظلام الليل من

كواسر الطير ومن الانسان . وكذلك الذئاب تتعاوى فى الليل ، ولا نسمع عواءها فى النهار ، بل لا نراها فى النهار . فالنهار هو وقت سكونها ، والليل وقت هبوبها وغاراتها . ذكر أحد الانجليز انه كان فى روسيا ، وقد ركب مزلجة يجرها فرس على الثلج فى الظلام الدامس ، فاغارت عليه بعض الذئاب ، فاعمل السائق السوط فى الفرس يستحثها على العدو ، وأخذ الانجليزى يطلق النار على الذئاب المطاردة . ولكنه كان طول الوقت يرى بصيص النور على طول الطريق كأنه ضوء مصابيح . فقال للسائق : علام العدو ؟ ألست ترى المصابيح ؟ فنحن فى قرية فلندخل احد هذه الأكواخ حتى تذهب عنا الذئاب . فأجاب السائق قائلاً : ان ماتراه ياسيدى ليس مصابيح وانما هو عيون الذئاب المتربصة بنا فى الطريق

والخفاش هو حيوان الليل غير مدافع . والعجيب فى هذا الحيوان انه يحس البعوضة باطراف أجنحته ، ويتوق العوائق فى طيره ولو كان أعمى . فقد فقئت عيون الخفافيش ، فطارت فى الليل ، وصادت بعوضها ، ولم تتأثر بالعمى . وليس يمكن تفسير ذلك الا بأن حاسة اللمس قد اشتدت فى أطرافها ، حتى صارت تحس تموجات الهواء التى تحدثها بعوضة أو فراشة . وبعض الخفافيش تعيش فى الكهوف ، حيث الظلام حالك دامس ، لا يمكن العين – حتى عين الخفاش – رؤية شىء فيه . ومع ذلك تسلك طريقها وتعرف أوكارها . وفى اميركا خفاش مصاص يمص دم الحيوان انساناً كان أو فرساً أو بقرة ، بحيث لا تحس هذه الحيوانات أن الخفاش قد حط عليها أو مص دمها . والحقيقة أن الخفاش لا يحط عليها ، وانما يلامسها بفمه ، ويبقى وهو يمص دمها رافعاً نفسه فى الهواء برفرفة جناحيه . وليس لرفرفته صوت يسمع ، وكذلك

ليس لعضته من الألم أكثر مما لعضة البعوضة . فاذا كان الانسان نائماً لم يشعر بشيء ، فاذا استيقظ وجد انه قد فقد نحو رطل من دمه

وفى حقولنا لا نرى الخلد أو القنفذ الا فى الليل . فهما لايسعيان الا عند الظلام . أما الثعلب فقد نراه فى النهار ، ولكننا لا نراه يسعى سعى الجد . فالنهار وقت لعبه ومرحه ، لا وقت سعيه للمعاش . ولذلك لا تخشاه الحيوانات فى هذا الوقت ولو رأته . فقد ذكر أحد الانجليز المختصين برعاية الأرانب والثعالب فى مصطاد لأحد اللوردات ، أنه رأى الثعالب تلعب فى النهار قريباً من جحر الأرانب . وكانت هذه الأرانب تلعب أيضاً خارج الجحر وترى الثعلب فما كانت تخشاه أو تحاول الهروب منه والأختفاء فى جحرها . حتى اذا آذنت الشمس بالمغيب ، دخلت الأرانب أجحارها ، وبان الجد فى وجه الثعلب . ومن الرياضات المعروفة عند اثرياء الأنجليز أن يصيدوا الثعالب فى مصطادات خاصة ، وهم لذلك يطلقون الأرانب فى هذه المصطادات لكى تقتات بها الثعالب

وفى الصباح ، فى شوارع القرى ، بل فى صحون البيوت ، تجد آثار سير الثعبان مما يدل على نشاطه طول الليل

واكثر الطيور تسعى فى النهار ، ولكن منها مع ذلك مايقصر سعيه على الليل كالبوم . ونحن فى القاهرة لا نرى أفاعيل البوم فى الليل رؤية العين ، ولكننا نسمع بضجيج المعركة فى هدوء الظلام . نسمع أولاً صوت العصفور الذى قبضت عليه البومة وهو نائم فى الشجرة يصيح صيحات الألم . وهى عالية أولا ، ثم تخفت ، لان البراثن قد دخلت الى باطنه . ثم تصمت لأن ظفراً قد وصل الى قلبه . فنعرف انه قد دخل فى الابدية . وعندئذ تصيح البومة صيحات الظفر ، وتشرع فى عشائها أو

بالأحرى فطورها . وهكذا يستمر تنازع البقاء فى الليل حتى يصح قول هكسلى : « الطبيعة حمراء بين الناب والمخلب »

ولكن الغاية هى مكان هذا التنازع . فاذا جاء الليل ، عجت وضجت بافاعيل السباع ونشاط الحيوان . حتى البهائم أنفسها ، كالجاموس والظباء والايائل ، لا تسعى الا فى الليل . تذهب الى المشارع البعيدة لكى تشرب ، فتجد الأسود والببرة والنمور قد كمنت لها . وترى التماع عيونها فى الظلام ، فتقف هنيهة بين ألم العطش الذى كاد يقتلها ، وبين الخوف على حياتها التى توشك أن تتطاير بين مخالب هذه السباع الفاتكة . وأخيراً يقهرها العطش على الورود . فتقذف بنفسها الى الماء وتخطف كرعة واحدة ، ثم تطير ناجية بنفسها على أقدامها الخفيفة ولكن فى هذه اللحظة السريعة ، تسمع اصطكاكاً يشبه التقاء جسمين جامدين فى وسط الهدوء الشامل . فقد وثب أسد على جاموس وضربه بكفه العاتية على رأسه ضربة قوية ، فمال الرأس الى تحت لعظم الصدمة ، فطال العنق ، وغرز الأسد أنيابه فيه ، حتى التقت وكسرت الفقار وقطعت عصب النخاع بين هذه الفقار . فوقع عندئذ الجاموس كأنه كومة تراب قد انهيلت . والجاموس الآن يتشحط فى دمه ، وينفخ ويضرب الهواء بأرجله ، والأسد رابض على بعد قليل منه وعيناه تقدحان الشرر ، ينتظر سكون الموت وهو يتلذذ بلذة الظفر . فاذا كان ذلك زأر زأرة أو زأرتين ثم يشق البطن ويأكل الكبد والقلب وماإليهما من الاطايب . وعلى نحو عشرة أمتار من الأسد وفريسته تجد ابن آوى ، أو ثعلباً ، قد وقفا ينتظران مايتركه الأسد . ومن وقت لآخر يتقدم الثعلب فيخطف مزعة من اللحم ، فيهجم عليه الأسد ، فيطير الثعلب ورأسه الى الوراء ينظر المسافة بينه وبين هذا الموت الجارف

كذلك تستمر حرب تنازع البقاء فى الغابة . فى النهار سكون وهدوء ، وفى الليل حركة ونشاط . حتى الفيلة نفسها ، وهى لا تخشى حيواناً ، تسعى فى الليل وترتاح فى النهار . وفى جنوب افريقيا تغير على حقول قصب السكر فى الليل ، فتتلف فى « عيادة » واحدة ضيعة بأكملها . فيذهب فى ساعة ماقاساه الفلاحون من جد وتعب فى عام . بل القردة أنفسها تهجم على الحدائق فى الليل ، فتأكل اثمارها وهى صامتة حتى لا يتنبه أصحاب المكان ، فاذا كان ضوء الفجر ولت هاربة الى الغابة

فالليل فى الغابة هو وقت المعركة بين السباع والبهائم . تلك تكمن وتثب ، وهذه تعدو وتنجو بنفسها . وملتقى الاثنين هو المشرع حيث تشرب البهائم والسباع . والبهيمة تعرف الخطر فى ورود الماء ، فهى تتقدم محاذرة مترددة ، ولكن نار العطش تأكلها فتجازف ، واذا بجسم يرتمى عليها كالقنبلة . فاذا حادت عنه نجت وفرت . واذا لم تسعفها أعصابها وعضلاتها وقعت وانتهت حياتها . بل من الماء تخرج لها أعداء . فضربة واحدة من ذنب التمساح ، ثم ثلاث أو أربع فقاقيع ثم ينتهى كل شىء كأن لم يكن فى العالم غزال يروح ويجيىء

ثم لا يدخلن مع ذلك فى ذهن القارىء ان هذا شر . بل كله خير فى النهاية . فتنازع البقاء يعمل لحدة الذكاء فى الحيوان كافة . ولسرعة العدو فى البهائم ، ولصدق الوثبة فى السباع . يعلم الأولى الجلد على العطش والجوع ، ويعلم الثانية الصبر فى الكمون ، ويرقى فيها جميعها مادة أعصابها وعضلاتها

اليد واللسان أصل الرقى فى الانسان

كلما تأملنا أحوال الرقى فى الانسان الحاضر والغابر ، زدنا بصيرة فى معنى هذا الرقى وأدواته . فهو يرجع الى اللسان واليد ، أكثر مما يرجع الى العقل

فاننا نتباهى على الحيوان بكبر أدمغتنا ، وهى فى الواقع كبيرة ليس فى العالم حيوان يدانينا فى جرمها . وان كان أحد القردة فى أميركا الجنوبية يقاربنا فيها اذا اعتبرنا نسبة دماغه الى جسمه . ولكن كبر الدماغ وحده ليس العامل المهم فى الرقى ، بدليل ان هذا القرد الذى ذكرناه لايبدى من الذكاء أكثر مما تبديه سائر القردة العالية . بل الواقع أنه دونها فى الذكاء .

وانما العامل فى هذا الرقى العظيم الذى بلغه الانسان وتفوق به على سائر الحيوان يرجع الى يده ولسانه . وقد كان يجب علينا أن نلحظ ذلك من قبل . اذ ان ثقافة الانسان، وماله من لغة راقية ومعارف مدونة أو مروية ، ومأثور فى الأدب أو العلم ينقله الخلف عن السلف ، ترجع كلها الى لسانه . ثم أن حضارته ومافيها من فنون فى البناء والصناعة والترف ترجع الى يده .

وقد يعترض القارىء بأن اليد واللسان لا قيمة لهما بدون هذا العقل الذى هو ثمرة الدماغ الكبير . فالجواب على هذا الاعتراض أن نصف هذا العقل يكفي لايجاد حضارة وثقافة تنقلان من السلف الى الخلف . فاننا نرى من اختباراتنا ، ان معايشنا لا تحتاج الى استعمال كل عقولنا ، فاننا نعيش ونحصل على القوت والانثى والمسكن بقليل جداً من استعمال عقولنا وكثير جداً من استعمال يدنا فى الصناعة وألسنتنا فى التفاهم . ولكى نزيد قولنا ايضاً يمكن أن نفرض فرضاً سخيفاً فنقول اننا لو أخذنا مائة ابله جرم الرأس فى كل منهم لا يزيد عن ثلثى الرأس العادى ، ووضعناهم فى جزيرة منفردة ، لأمكنهم أن يعيشوا ويحدثوا لأنفسهم نظاماً انسانياً فيه ثقافة وحضارة بشرط واحد وهو أن يكونوا قد تعلموها قبلاً فى وسط انسانى عادى ، ولكننا لو أخذنا مائة فيلسوف وقطعنا ألسنتهم وأيديهم ووضعناهم فى مثل هذه الجزيرة المنفردة ، لما استطاعوا أن يعيشوا الا عيشة بهيمية سرعان ما تقضى على حياتهم

فاليد هى أداة الحضارة ، واللسان هو أداة الثقافة . وهما كفيلان بالرق الانسانى اذا صحبا بقليل من الذكاء . وربما كانت أكبر نكبة نكبت بها القردة فحالت دون رقيها ، هو فقدانها ابهام اليد أو الجزء الأخير منها ، حتى باتت أيديها لا تحسن التناول فلا تحسن لذلك أية صناعة . وهى انما فقدت ابهامها لاقتصارها على السكنى فى الأشجار ، واحتياجها للوثوب من غصن الى غصن . وهذا الوثوب يقتضى أن تعوق الابهام سائر الأصابع فى التعلق

ولكن الانسان لم يقصر نفسه على الشجر أو الأرض ، وانما سكنهما جميعاً . فانتفع بالأرض لبقاء ابهامه ، وانتفع بالشجر لتحرير قواه العصبية وضبط أعمال اليد . ولسنا نشك فى المعيشة القديمة على الشجر ، أو على

الأقل فى استعمال الأشجار وسيلة للفرار من العدو ، بدليل أن المزاولة البسيطة القصيرة تجعل البهلوان من الانسان الآن يسلك مسلك القردة فى الانقلاب والوثوب والتعلق . ولو لم تكن أعضاؤنا مهيأة لهذه الألعاب . لما استطاع انسان أن يؤديها . ومعيشة اليابسة وحدها ليس من شأنها أن تهيىء الانسان لهذه الأعمال . وهذه الألفة بالأشجار قد حرزت أعصابنا ، وجعلتنا نقدر لكل مجهود مقداره من القوة العصبية ، لأنه من السهل على القارىء أن يرى أن الحيوان فى الماء أو على اليابسة لا يميز بين المجهود كبيره وصغيره . وانما هو يفر من أى خطر تافه أو عظيم بمجهود عصبى واحد لا يتدرج . ولكننا الانسان لالفته الغصون قد صار يحتاج الى تقدير قفزاته . لأنه لو كانت كل قفزاته متساوية كما هى قفزات حيوان اليابسة وقت الخطر أيا كان مقداره ، لوقع وهلك ، لأن الغصون غير متساوية فى البعد

فالألفة بغصون الأشجار جعلتنا نحرر أعصابنا ونجيد تقدير الأبعاد ، ولانتفق من قوانا العصبية إلا بمقدار مانحتاج اليه فقط . والألفة باليابسة جعلتنا نحتفظ بابهامنا . وتمت لنا بذلك ميزة على القردة التى هى أرقى الحيوانات بعدنا ، لأننا نستطيع أن نزاول الصناعة بأيدينا وهى لاتستطيعها

ومهمة اليد فى رقى الانسان لاتختلف عن مهمة اللسان . فكلاهما يعمل للايضاح والتقييد . فان من طبيعة العقل الانسانى أنه لايدرك معنى من المعانى إلا إذا وضع له اسماً أو رمزاً ، ولا خيالاً من خيالاته إلا إذا جسمه بجسم ما . وليس الفرق بين سبنسر الفيلسوف الانجليزى ، وبين الممجى الذى يعيش للآن فى الغابات فى افريقيا ، هو فرق بين الجزم فى دماغيهما . فانهما يستويان فى ذلك . ولكننا هو فرق بين لغة

كل مهما فسبنسر يعرف نحو ربع مليون كلمة هى ربع مليون معنى خاص بالحضارة والثقافة ، وهذا الهمجى أقصى مايعرفه نحو مائة كلمة . فالمعانى التى يتناولها دماغه لاتزيد عن هذا العدد

فاللسان يقيد المعانى ، ويجعل للفرد مأثوراً من الثقافة . فنحن مثلاً فى مصر ليس عندنا تلك الثقافة الخاصة بالطيران والطب والهندسة والفلك ، لأنه ليس فى لغتنا ألفاظ لمعانيها . وماعندنا من منطق وذكاء وفهم يرجع معظمه إلى أن عندنا معانى واضحة ، لأن الألفاظ لهذه الأشياء قيدتها فى حدود معلومة . ولذلك فمن السداد ألا تتعدد المعانى للفظ الواحد ولا الألفاظ للمعنى الواحد

وقامت اليد فى الحضارة مقام اللسان فى الثقافة ، وهى أنها جسمت الخيال الذى يتخيله الانسان فى جسم ما . ومهمة هذا الجسم تشبه عندئذ مهمة الاسم فى ايضاح المعنى . فالمخترع الذى يخترع ، لايفهم اختراعه ويدرك مافيه من محاسن أو مساوى ، مالم يقبض بيده على المواد يجسم بها خياله . ويده وهى تطاوعه تفتح له المعنى بعد الآخر وتزيده فهماً ويزيدها هو صنعة . فتتبادل اليد والدماغ هذه المعرفة الجديدة ، ويتم الاختراع ، وتزداد ثروة الحضارة شيئاً جديداً . فاليد كاللسان أداة تعبير وإيضاح . وفنون الحضارة كلها ، من كتابة إلى تصوير إلى عمارة إلى هندسة إلى طب ، قائمة على براعة اليد التى يضع اللسان أسماء مفصلة لأجزائها ، حتى تصبح مأثوراً ينقله الخلف بلا عناء عن السلف

وخلاصة ماتقدم أن أكبر عامل لرقى الانسان هو لسانه ويده . فهذان العضوان عندنا من أدق الأعضاء إذا قوبلا بما عند جميع الحيوانات . ففينا من يمكنه أن يحاكى بمزاولة قصيرة ، أى طائر فى شدوه وأى حيوان آخر

فى صوته . ويمكننا ببراعة أيدينا أن نلعب كالبهلوان جميع ألعاب القردة

فأما براعة اللسان فلا نعرف أصلها . وأما براعة اليد فترجع إلى الفتنا الاشجار التى اكتسبنا منها ميزة أخرى هى ضبط أعصابنا وتقدير الأبعاد فى حركة أعضائنا . ومن براعة اليد واللسان نشأت حضارتنا وثقافتنا . وذلك لأن اليد صورت لنا الأشياء فى صور مجسمة يمكن محاكاتها واعادة صنعها بدون الحاجة الى تكرار الاختراع . واللسان أحدث الأسماء التى هى قيود المعانى

الديمقراطية والذُّرَة

حاول كثيرون من المؤرخين والاقتصاديين ، مثل ماركس وبترى ومالثوس ، أن يردوا تطورات الأمم وارتفاعها وانخفاضها إلى عوامل اقتصادية ، كل منهم على حسب عقيدته الاجتماعية . وربما كان أنزههم غرضاً ، وأوضحهم طريقة ، وأعمقهم درساً « توماس بكل » المؤرخ الانجليزى . فقد عقد فصلا يحتوى على نحو مائة وخمسين صفحة ، استقرى فيها علاقة الطعام بالأمة من حيث تقسيم طبقاتها الاجتماعية وحالة عمالها والحقوق السياسية التى يحصل عليها كل فرد منهم

ولما كنا جميعاً تلوك ألسنتنا ألفاظ الديمقراطية والاشتراكية وبدأت تتكون عندنا مسألة عمال ، رأيت أن أقدم للقراء بعض آراء « بكل » عن تأثير الذرة — وهو نبات معروف مزروع فى مصر وسوريا والعراق — فى أحوالنا الاجتماعية

يرى « بكل » ويؤيده التاريخ أن الحضارات الأولى كانت زراعية ، على ضفاف الأنهار فى البلاد الدافئة مثل حضارات النيل ودجلة والكينج ، وحضارات الصين . وإنما الحضارة ممكنة فى هذه الأصقاع

لأن الحر ليس من الشدة بحيث يمنع العمل المتوالى ، كما هو الحال فى وسط افريقيا . ثم أن شدة الحر والرطوبة (كما هو الحال فى أودية البرازيل) تدعو النبات إلى النمو السريع ، فتكثر الغابات ، فلا يستطيع الانسان أن يتغلب على الطبيعة الطاغية بأدواته الزراعية البسيطة . فالزراعة لاتمكن فى هذه الحال ، وينتج عن ذلك استحالة نشوء الحضارة

ثم ان الحضارة تحتاج إلى طبقة من الناس فى راحة نسبية غير مكدّحة أو مجهودة فى طلب المعاش . فإذا كان الانسان يعيش فى غابة ، يلتمس قوته يوماً بيوم ، فانه لن يجد من الوقت مايساعده على الصناعة أو الاختراع والاكتشاف . وكلها ضرورى للحضارة

لهذا السبب لم تنشأ حضارة فى بلاد شديدة الحر والرطوبة ، لان زكاوة النبات منعت الزراعة المنتظمة . وإنما نشأت الحضارات فى أودية الأنهار التى ذكرناها فنشأ هناك نظام اجتماعى متألف على الدوام من طبقتين : وهما طبقة السادة وطبقة الفعلة المستعبدين . فمن السادة كان يخرج الحكام والكهنة والولاة والأغنياء . أما الصناع والفلاحون فكانوا عبيداً يستذلهم أفراد تلك الطبقة ، فلم يكن عند المصريين القدماء مثلا طبقة متوسطين

وأهم مايلفت اليه « بكل » نظر القارىء أن الفعلة أو العمال فى تلك المدنيات الزراعية القديمة كانوا مستعبدين . وقد توصل الى هذه النتيجة باستقراء التواريخ القديمة والحديثة ، ثم بالنظر فى علاقة الطعام بكثرة السكان

فقد كان المصريون يزرعون الذرة عقب الفيضان ، وانسياح مياه النيل فى الأودية ، فلم تكن تمضى أشهر معدودات حتى يثمر الذرة وتعم

غلته البلاد . وإذا كثر الغذاء كثر السكان ، فكان الناس يتناسلون بنسبة ماف البلاد من هذا الغذاء الوافر . وأجور العمال مثل أثمان سائر السلع التى تباع وتشترى . فإذا أكثر العمال قلت أجورهم ، وإذا قلوا زادت . وقد كان العمال فى مصر كثيرين بسبب كثرة الذرة ، وكانت لذلك أجورهم منحطة . بل كانوا أحياناً يشتغلون بقوتهم

والحقوق الاجتماعية والسياسية تتبع القوة المالية . فذوو المال هم أيضاً ذوو السلطان . وقل أن لايستبد ذو سلطان ويسيء استعمال سلطته . لذلك جارت الطبقات السائدة على الطبقات المسودة فى الحضارات الزراعية القديمة

ومما يزيد قوة الطبقة السائدة مايلاحظ من أن الربا وايجار الأرض يزيدان إذا كانت أجرة العامل قليلة . ثم أن حرمان طبقة العمال من الربح الكافى يجعلهم فى فقر دائم . والفقر مجلبة للاحتقار وللحرمان من الحقوق السياسية والاجتماعية

قال « بكل » : « ولنختصر ماقلناه فى جملة ، وهو أن سكان مصر تكاثروا بسرعة . لأنه بينما كانت تربة النيل تزيد الطعام ، كان المناخ يقلل الحاجات . وكانت نتيجة ذلك أن مصر لم تكن أكثر البلاد سكاناً فى أفريقيا فقط ، بل الأرجح أنها كانت أكثر أقطار العالم القديم سكاناً »

وقال أيضاً : « كان أحد طبقة الصناع إذا غير مهنته (فى مصر) أو عرف عنه الالتفات إلى المسائل السياسية جوزى جزاءاً صارماً . ولم يكن يؤذن بأية حال للأكار أو للصانع أن يمتلك أرضاً ، فإن امتلاك الأرض كان خاصاً بالملك والكهنة والجيش . وكانت حالة عامة الشعب لاتفضل حالة الماشية إلا يسيراً . ولم يكن يطلب منهم سوى العمل المتواصل الذى لايؤجر أجره . فإذا أهملوا جلدوا ... ومثل هذه الأنظمة

كانت مدبرة أحسن تدبير يوافق تلك الهيئة الأجتماعية التى كانت قائمة على الحكم المطلق ، فكانت تحتاج إلى القسوة لدعمها والمحافظة عليها . ثم لما كان مجهود الامة كله قيد ارادة جزء صغير منها ، تمكن المصريون من تشييد تلك البنايات الضخمة التى يحسبها البعض بدون انعام الرؤية أنها برهان الحضارة وهى فى الواقع دليل الانحطاط .. »

فكثرة الغذاء ورخصه ، وقلة الحاجات من لباس ومسكن ووقود ، كما هو الحال فى البلاد الحارة ، تدعوان إلى كثرة السكان وازدياد عدد العمال . وإذا ازداد عدد العمال تزاحموا للحصول على أقل أجر ممكن ، وهو مايكفى لقوتهم . فينتج من ذلك أنهم يعيشون فى فقر مدقع . والفقر مجلبة للاحتقار والحرمان من الحقوق السياسية والاجتماعية . فتنتهى حالهم إلى مايشبه الرق . وهذا كان حال العمال (ولايزال فى بعض الجهات) فى مصر والهند والصين وبعض حضارات أمريكا القديمة

وقد بلغ من ازدراء الطبقة السائدة فى الهند ، وهم البراهمة ، بعامة الهندويين ، أن نصوا فى شرائعهم على عقوبات صارمة لهفوات صغيرة تشبه ماكان عند المصريين القدماء . بل قد تفوقها شدة وصرامة . فمن ذلك أنه إذا ازدرى باللفظ أحد العامة برهمياً أحرق فمه ، وإذا سبه شق لسانه ، وإذا ضايقه قتل

والعامل الاقتصادى ، أو بعبارة أخرى الطعام الرخيص وقلة الحاجة للملبس والمسكن ، هما سبب هوان العامل الهندى وازدراء الخاصة للعامة . فإنهم قد تكاثروا فنزلت أجورهم ، فعمهم الفقر ، فحرموا من الحقوق السياسية والاجتماعية

والعبرة التى نعتبرها مما ذكرناه أن مناخ البلاد فى الهند ومصر يقلل حاجات الانسان . وطعام الذرة لوفرته ورخصه يزيد عدد السكان ، وازدياد السكان يؤدى إلى رخص الأجور ثم إلى نشر الفقر . والفقر مدعاة للاحتقار وإلى حرمان العامة من الحقوق السياسية والاجتماعية . والحال ليست كذلك فى أوربا ، لأن المناخ البارد يكلف الإنسان عدة تكاليف من لباس ومسكن ووقود وغذاء . ثم ان الغذاء غالى الثمن ، فزيادة السكان بطيئة . وهذا يدعو إلى قلة عدد العمال ، ثم زيادة أجورهم ، وحفظ كرامتهم . فإذا كانت الديمقراطية فى حاجة إلى من يحافظ عليها فى أوربا من طمع المستبدين ، فهى أحوج عندنا إلى هذه المحافظة ، فان الغذاء والمناخ كليهما يساعد على الاستبداد بالعامة

الحيوان بين عاملى الحب والخوف

الخوف ، من غرائز الحيوان والانسان معاً ، فكلاهما مفطور على الحذر من كل غريب ، والفرار منه عند اللقاء الأول . والحيوان يتفاوت فى عاطفة الخوف . فمنه مايفرق لاقل حس أو حركة كما هو الحال فى الأرنب البرى ، ومنه مايسير فى الغابة كأنه يسير فى بيته كما هو الحال فى الأسد أو الببر . يمشى أحدهما فيتخلع ، وكأنه يتبختر ، يوهم الرائى أنه شاعر بقوته لايهاب أى مخلوق . ومع ذلك هذا الأسد مع شجاعته كثيراً مايخاف الشيء الغريب ويفر منه . فقد ذكر بعض الصيادين أن أسداً هاجم خيامه ، وفاجأ زوجته ، فلم تر شيئاً قريباً منها سوى مظلة فتناولتها وبسطتها فى وجهه ، فتراجع الأسد مرتاعاً إذ لم ير شيئاً فى حياته يكبر وينبسط بهذه السرعة . فكأنه حسبه حيواناً غريباً قد يؤذيه ، وقد يستمر على الانبساط حتى يلتهمه

ولكن غريزة الخوف التى تولد مع الحيوان تكون فى بدايتها شيئاً غشيماً ، مبهماً . فإذا نشأ الحيوان ، أخذ من والديه ومن تجارب الأيام مايصقل به هذه الغريزة ، ويوضح حدودها ويقويها من نواح ،

ويضعفها من بواح أخرى. ففراخ الطيور تنشأ وكأنها لاتخشى شيئاً ، فهى تتناول الطعام من أيدينا كما تتناوله من أفواه أمهاتها . ولكن ماهو أن تشب ، حتى تتعلم من أمهاتها الخوف وتعرف عدوها من صديقها . وكذلك الحال فى أكثر الحيوان

فنحن نولد مثلا وفى نفوس كل منا اثارة خوف ورثناها عن آبائنا ، تجعلنا لانطيق الانفراد فى الظلمة . ولاشك فى أن هذه الغريزة كانت مفيدة لآبائنا ، إذ كانت تدفعهم الى الاجتماع فيشد بعضهم بعضاً . وكانوا لايتطوحون فى مهاوى الظلمة حيث وسائل الهلاك عديدة

وقد ضعفت هذه الغريزة فى نفوسنا بعض الضعف . ولكن قام مقامها مخاوف أخرى اقتضتها الحضارة ورقى الفكر . فنحن نخاف الافلاس ، والموت ، والأمراض ، وماإليها

وجميع أفراد الحيوان التى عرفت الانسان تخشاه وتفر منه . ولايتورط معه حيوان فى شجار إلا عند الاستقتال ، وعندما تقفل فى وجهه جميع منافذ الخلاص ، أو عندما يعضه الجوع فيشفى منه على الهلاك . فالاسد مثلا لايهاجم القرى إلا عندما تقع أسنانه وتنهد قواه ، فلا يطيق الجرى وراء حيوان الغابة . فإذا ضرى على أكل الانسان لم يتحول إلى غيره

وعلة خوف الحيوان من الانسان يرجع الى التجارب القديمة ، وما أبلاه قديماً فى عامة الحيوان طيوراً أو دواب . فقد عاش الانسان حقباً عديدة وهو يقنص الحيوان للطعام واللهو . فانغرزت فى ذهن الحيوان غريزة الخوف منه ، وتوارثها الخلف عن السلف حتى صارت فيه طبيعة ثابتة . ومما يدل على هذا ، أن الحيوان الذى يعيش بعيداً عن الانسان منذ أزمنة طويلة لايخافه ، ولايحسب حسابه ، أو يفر عند اقترابه . فقد ذكر داروين انه كان فى أرخبيل الجلاباجوس سنة ١٨٣٥

وهذا الارخبيل لم يقطنه انسان قط. فجميع أنواع حيوانه لا يخشى الانسان . قال :

« ان جميع حيوان اليابسة كالعصفور والحمام كانت جميعها تقترب منا بحيث نقتلها بالمدية ، وأحياناً كنت أقتلها أنا نفسى بالقبعة . ولاضرورة هنا للبندقية . فقد دفعت صقراً عن غصن شجرة بطرف انبوبتها . وكنت فى أحد الأيام راقداً ، وكان بجانبى ابريق ماء مصنوع من صدف السلحفاة ، فحط عليه العصفور وأخذ يحسو الماء منه . ورفعت الأبريق عن الأرض وهو لا يطير عنه . وكثيراً ماحاولت أن أمسك هذه الطيور من أرجلها وكدت أنجح »

فمن هذا يتضح لنا أن معظم الخوف الذى يشعر به الحيوان من الانسان هو نتيجة التجارب التى بلاها منه . فقد حدث تنازع بقاء بين الحيوان . مات فيه الجرىء الذى لا يخشى أن يتعرض للانسان ، وبقى الخائف الحذر الذى يتوقاه ويفر منه

فهل تبقى علاقتنا بالطير وسائر الحيوان علاقة عداء وخوف لا ينتهيان الى الابد ؟ أو ليس ثم موضع للحب بيننا وبينها ؟

لسنا فى مقام الصوفية فنقول مع القديس أوغسطينوس : « أخى الطير » ونطلب تعميم الأخاء بيننا وبين الحيوان . ولكننا نقول ان زمن اعتماد الانسان على الحيوان فى المعاش يصيده وينصب له الفخاخ قد مضى . فليس يعدو الصيد الان أن يكون لهواً لا فائدة مادية فيه . وقد كان تجار قبعات السيدات الى عهد قريب يقتلون الآلاف من الطيور حتى كادت تفنى . وهذا أبو قردان قد كاد ينقرض فى بلادنا عندما أعمل الصيادون فيه بنادقهم حتى شملته عناية حكومتنا ، فعاد الى الانتشار بين حقولنا يطهرها من الديدان . وقد منعت أغلب الحكومات

صيد الطيور بغية الحصول على ريشها ، وأسست حرماً فى افريقية الجنوبية يمنع فيه صيد الفيلة . والرأى العام فى العالم المتمدين يدعو الى حماية الطير والحيوان بوضع قيود وحدود لصيده

واذا جاء يوم يمنع فيه صيد الطيور وانواع الحيوان التى لا تؤذى الانسان ، فلن يكون بعيداً أو مستحيلاً أن يزول منها خوفها الراهن من الانسان ، فتعاملنا كما عاملت داروين طيور ارخبيل الجالاباجوس

الذهـن والبصـيرة وبرجســون

كان القرن التاسع عشر قرن الصراع بين العلم والدين . ولكن هذا الصراع عندما ننظر اليه بالنظر الحديث نجد انه كان قائماً على أشياء تافهة لا يبالى بها الآن رجلى الدين ولا رجل العلم . فقد كان النزاع بين الاثنين فى القرن التاسع عشر قائماً على التناقض بين ماترويه الكتب الدينية عن خلق العالم ونظام الكواكب ، وصحة الروايات التاريخية ، ونحو ذلك . فكان العلم يقول قولاً ويقول الدين قولاً آخر

هذا النزاع القديم ليس فينا الآن من يبالى به . فان صحة القصة المروية عن يوسف ابن يعقوب مثلاً أو عدم صحتها لا تزعزع ايمان أحد فى اليهودية أو المسيحية . لان الايمان الدينى لا ينحصر فى هاتين الروايتين ، وانما هو يعم العالم ، ويتنوع عقائداً وأفكاراً ، كما نرى فى البوذية والاسلام والبرهمية وغيرها . فصحة الدين تقتضى النظر فى روح هذه الاديان كلها ، واستخلاص لبابها ، والبحث بعد ذلك عما يتناقض فى هذا اللباب مع العلم

ويبدو لنا ان الناس ، أو بالأحرى العلماء ، قد صار للنظر الدينى أو الصوفى حرمة عندهم ، لم يكن يشعر بها علماء القرن التاسع عشر . ونحن نعزو هذا الانقلاب الى رجلين اثنين هما : كانط الالمانى وبرجسون الفرنسى

فقد شرع كانط فى ختام القرن الأسبق ينتقد الذهن الانسانى ، ويقول انه لايمكنه أن يقف على كنه الحقائق ، لأنهُ لا يعرف غير صورتها فقط كما تظهر له . فنحن نعرف الظواهر لا الحقائق . أى اننا لانعرف الأشياء التى نراها فى هذا العالم ، وانما نعرف الأفكار التى تؤلفها اذهاننا عنها . فنحن بازاء العالم أو الكون كالرجل فى غرفته يتطلع من النافذة الى الشارع ، ويرى السابلة . فالنافذة هى واسطة التعارف بينه وبين هؤلاء السابلة . وكذلك حالنا نحن أيضاً فى ادراك حقائق هذا الكون ، ننظر اليها عن سبيل حواسنا وأذهاننا ، ولا نتصل بها مباشرة . فلانعرف عنها الا ماترتئيه هذه الأذهان عنها وما تكونه من الأفكار . وبايضاح أكثر يمكن أن نقول : اننى لا أعرف هذه الورقة ولا أقف على كنه حقيقتها ، وانما أعرف فقط فكرتى عن هذه الورقة

وقد كان من أثر كانط أن تزعزعت المادية فى القرن التاسع عشر . ثم جاءت نظرية التطور فى منتصفه . ومن ينظر اليها يعتقد لأول وهلة انها زعزعت الأديان ، لأنها أنكرت روايتها للخلق . وهذا حق . ولكن يجب من جهة أخرى أن نذكر أن هذه النظرية قد اضعفت الثقة بالذهن الانسانى ، لأنها جعلته ناقصاً يتطور ويسير نحو الكمال . ومادامت الأفكار هى عبارة عن العلاقة بين المادة والذهن ، فان هذه الأفكار تتطور أيضاً بتطور الذهن . فما نظنه حقائق انما هو أفكار دائمة التطور . فصحتها هى على الدوام صحة نسبية غير مطلقة

وجاء برجسون فى عصرنا الحديث فتناول من ُجهة أخرى هذا الموضوع ، أى استنقاص الذهن البشرى وعدم كفايته لأن يدرك حقائق الكون . وبرجسون منقوع فى نظرية التطور ، يسير فيها على هداية ولايخبط . فهو يقول ان حياة الحيوان كما نستقريها الآن مقسومة الى قسمين ، من حيث الوعى والادراك . وهذان القسمان هما :

١ – حياة الحشرات التى تعتمد فى الادراك على الغريزة ، بلا حاجة الى معرفة مكتسبة

٢ – وحياة الانسان والحيوانات الراقية التى تعتمد على العقل المحتاج الى معرفة مكتسبة

وليس يشك أحد فى اختلاف الغريزة من العقل ، وانهما سبيلان مختلفان جد الاختلاف للاتصال بحقائق هذا الكون . ولكن لما كانت الاحياء كلها من أصل واحد ، قد نبعت وتفرعت منه ، فاننا نجد فيها جميعاً بذرتى الغريزة والعقل . ففى النملة أو النحلة شىء طفيف من العقل ، كما ان فى الانسان جراثيم الغريزة

والغريزة والعقل نشأ كلاهما لقضاء ضرورات الأحياء من طعام وتناسل ودفاع . ولكن العقل فى الانسان قد عدا هذه الغاية من تزويد الانسان بحاجاته المعيشية الى البحث الفلسفى ، واستحال ذهناً صافياً يبحث عن حقائق الكون بغية المعرفة . وكذلك الغريزة يمكن أن تستحيل الى بصيرة ، وتكون عندئذ أصدق نظراً فى استكناه الحقائق من الذهن

فالعقل المنزه عن الأغراض المعيشية قد استحال ذهناً

وكذلك الغريزة المنزهة عن الأغراض المعيشية تستحيل بصيرة فبرجسون يقول أن أذهاننا لا يمكنها أن تقف على حقائق الأشياء لأنها انما نشأت من العقل . وهذا العقل نشأ لكي يتناول المادة ويصوغها فى القالب الذى يهواه لمصالحه المعيشية . فهو اذا تنزه عن هذه الأغراض المعيشية صار ذهناً . ولكن خصلته الأولى تبقى فيه ، وهى تناول المادة وصياغتها ، فيصير ذهناً مخترعاً . ولكنه لا يمكنه مهما ارتقى أن يبلغ سر الحياة . ولكن الغريزة تختلف منه فى ذلك . فان الزنبور الذى يذهب الى يرقة احدى الحشرات ويلسعها بحيث تكفى اللسعة للتخدير دون الموت ، ثم يبيض فيها بيضه ، حتى اذا تفقأ البيض خرجت أولاد الزنبور وأكلت جسم اليرقة واغتذت منها ، هو أقرب الى سر الحياة بغريزته منا نحن بأذهاننا . فانه بلا معرفة مكتسبة يغرز حمته فى جسم اليرقة فلا يقتلها ، وانما يتصل بأعصابها بحيث يخدرها فقط . فكأنه على اتصال بهذه اليرقة ، وعلى معرفة لدنية بأعصابها ، يشبه اتصال أعصاب الانسان بأمعائه . فهذه الاعصاب فى الانسان تسيطر على الأمعاء وتجعلها تهضم وتمثل بدون معرفة مكتسبة . ولكن هذه السيطرة لا تقوم بالطبع الا بتآلف وتفاهم بين الاثنين . ولكن هذا التفاهم غريب عن أذهاننا لانه من نوع آخر . وكذلك التفاهم بين الزنبور واليرقة ، أو بين النملة والمن الذى تحلبه ، فانه غريب أيضاً عن أذهاننا ، ولكنه يبين لنا أن هناك طريقة أخرى للمعرفة هى أخصر جداً من طريقة الذهن . وهذه الطريقة هى طريقة الغريزة والبصيرة

ونحن نعيش ونخترع بذهننا ، ولكن فى كل منا بذرة الغريزة . لاننا استقينا من معين الحياة نفسه الذى استقت منه الحشرات ، وان كانت الغريزة لم تقو فينا قوتها فى الحشرات . فاذا أردنا أن نقف على كنه الحياة

وسرها ، يجب أن نستخلص من غريزتنا « بصيرة » نتصل بها بالاحياء ، ونقف منها موقف الزنبور من اليرقة أو موقف النملة من المن ، كما استخلصنا من العقل « ذهناً » نخترع به

فأداة الاختراع هى الذهن ، ولكن أداة الفلسفة هى البصيرة ، لأن الذهن هو العقل المنزه ، وغايته الأصلية معالجة المادة واكتساب المعرفة . ولكن البصيرة هى الغريزة المنزهة ، وغايتها الأصلية الادراك اللدنى للأحياء . بحيث يعرف الزنبور أعصاب اليرقة نفسها كأنها قطعة من جسمه هو نفسه ، وليست فرداً منفصلاً بعيداً عنه

ولكن كيف نستحدث هذه البصيرة فى أنفسنا ؟

يقول برجسون ان ذلك ممكن كما استحدثنا السباحة ، بعد أن نسيناها ، أى بالرياضة والمران . ويقول أن الصوفية ليست فى الواقع سوى النظر الى الكون بالبصيرة دون العقل

وأظن الى هنا انى أوضحت رأى برجسون . اما نجاح كل منا فى أن يستخلص لنفسه هذه البصيرة النافذة لاسرار الكون ، فهذا مايجب أن يفحص كل قارىء نفسه فيه . انما أقول هنا ان سر الحياة عند برجسون هو الله نفسهُ ، وهو سر الكون كلهُ

* * *

والآن لنتبسط قليلاً فى مايقوله برجسون من أن الذهن البشرى لا يمكنه وحده أن يدرك الحياة

فان هذا بأوجز عبارة مايقوله برجسون ، ويدافع عنه ، ويحاول أن يثبته فى كتابه العظيم « التطور الخالق »

فهو يقول ان الحياة كما نستقريها الآن ثلاثة فروع كبرى وهي :
١ - فرع النبات وطبيعته السبات . وهو خلو من الوعى ، أى الدراية ، لأنه لا يتحرك . ومادام لا يتحرك ، فهو لا يتردد . والتردد أصل الوعى
٢ - فرع الحيوانات الدنيا التى تنتهى بالحشرات ، وطبيعتها الغريزة . وبها وعى . لانها تتردد أحياناً فى حركاتها ، وهذا التردد يجعلها تعى أن تدرى بما تفعل
٣ - فرع الحيوانات العليا التى تنتهى بالانسان . وطبيعتها العقل ، الذى يتردد ويعى

والحياة تشتمل على هذه الفروع الثلاثة . فاذا اردنا أن نفهم طبيعة الحياة على الوجه الكامل ، وجب أن يكون فينا عقل الانسان وغريزة الحشرة وسبات الشجرة . لاننا نحن فرع من الحياة ، ولذلك فاننا اذا حاولنا أن نفهم الحياة بأذهاننا وحدها ، كان موقفنا بمثابة الجزء يحاول أن يفهم الكل

ولكننا نحن والحشرات والنبات من أصل واحد . وهذا الأصل هو الحياة الشاملة لنا جميعاً . ولذلك ففى الحشرات جرثومة العقل وفى الانسان جرثومة الغريزة . وفينا نحن والحشرات طبيعة النبات . أى هذا السبات الذى يشملنا أحياناً فلا نحب أن نتحرك أو نعى أو نجهد أى جهد

ويمكننا أن نستغنى عن النبات من حيث ادراك طبيعته . لأنه لما كان لايعى ، أى لا يدرى ، فان أهميته بالنسبة لنا فى صدد موضوعنا هذا تسقط . لأن الفهم وعى أى دراية ، ومادام النبات لا يعى فهو لا يساعدنا فى فهم الحياة

يبقى بعد ذلك حيوان الغريزة وأرقاه النمل أو النحل ، وحيوان العقل وأرقاه الانسان . والعقل والغريزة كلاهما نشأ لقضاء حاجات الحيوان من تحصيل الطعام والتناسل ونحوهما . ولكن ثم فرقاً بينهما . فالغريزة لا تحتاج الى تعليم أو تجربة . فان الحشرة تقف من سائر الأشياء والحيوان موقف البصيرة الكاشفة ، التى تتجلى لها الحقيقة فيما يخص طعامها أو أولادها دون أدنى اختبار سابق أو معرفة مكتسبة . ولكن العقل يختبر ويتعلم ويجرب وهو يجهل مالم يكتسب معرفته بهذه الطرق

فكأن للحياة أداتين للمعرفة . أداة الغريزة ، وهى تعرف كنه الأشياء ببصيرة ثاقبة لا تحتاج الى تعليم أو اختبار . وأداة العقل ، وهى تعرف بالتجربة والاختبار . ولكن معرفة الغريزة محدودة ، لأنها مقصورة على ماينفع الحشرة من طعام وشراب وسائر ماتسلكه لمصلحتها المعيشية ، وتجهل ماسوى ذلك . ولكن الحيوان العالى الذى يعتمد على العقل ، يتوسع فى تحصيل معاشه ويكتسب المعارف . فمداه فى المعرفة أوسع من مدى الغريزة

ولكن للغريزة ميزة على العقل وهى انها ألصق بالحياة منه . فالنملة التى تحلب المنة بدون أن تعلم ذلك ، تقف من المنة موقف الكشف تعرف طبيعتها . وبين الاثنين على انفصالهما علاقة تشبه ما بين رأس الانسان وامعائه ويده من العلاقة

ولكن الغريزة كما قلنا ضيقة المدى ، محصورة المعرفة ، لأنها مقصورة على مصالح الحشرة . ونحن لانزال فى نفوسنا جراثيم هذه الغريزة ، لاننا نحن والحشرات قد استقينا من معين واحد هو الحياة

وقد استنبطنا من العقل الذى لم ينشأ فى الأصل الا لتحصيل الطعام ذهناً يفلسف ويدرس النجوم والكواكب . فاذا أردنا أن ندرك كنه

الحياة ، وجب أن نستنبط من نفوسنا تلك الغريزة ، ونستخلص منها بصيرة تستكنه الحياة

فالعقل اذا نزه عن غرض العيش استحال ذهناً
والغريزة اذا نزهت عن غرض العيش استحالت بصيرة

والبصيرة ألصق بالحياة واكثر ادراكاً لها من الذهن . لأن الذهن يتعلم ويختبر ويزيد معارفه . ولكن البصيرة تكشف لنا ، وتقفنا من سر الحياة والجماد موقف التجلى والمعرفة اللدنية . فكما أن عند النملة معرفة لدنية بفائدة المنة ، حتى انها لتربيه وتحلبها ، وتعنى بصغارها ، بلا سابق تعلم ، كانها هى والمنة جسم واحد منفصل المادة متصل الروح . كذلك نتصل نحن ببصائرنا بالأحياء والاشياء بسبيل المعرفة اللدنية التى هى من جنس معرفة النملة بالمنة ، وان كان مداها أوسع . كما أن مدى الذهن أوسع من مدى العقل

والخلاصة ان برجسون يقول ، ان الأحياء التى على الأرض من حيث علاقتها بالمعين الأصلى للحياة ، أى بطبيعة الحياة وكهنها وقصدها ، ثلاثة أصناف . يمثلها النبات والحشرة والانسان . والوعى ، أى الدراية ، مقصورة على الحشرة والانسان . ولكن سبيل الأولى الغريزة . وسبيل الثانى العقل . فالانسان جزء غير متجانس مع هذه الأجزاء الثلاثة ، فلا يمكنه أن يدرك كنه الحياة بعقله وحده . ولكن به مع ذلك جرثومة الغريزة ، التى هى ألصق بالحياة من العقل . فسبيل الانسان لكى يفهم الحياة انما يكون بالبصيرة ، التى هى من الغريزة بمقام الذهن من العقل . لأن علم البصيرة لدنى ، أما علم الذهن فمكتسب

* * *

ولكننا لم نقل بعد كل مايقوله برجسون ، بل ولاعشر مايقوله . فان كتابه يفيض بالنظريات التى ان لم تقنعك ، فهى تلقيك فى حيرة ، وتحثك على التفكير ومراجعة نفسك وآرائك

ولكن هل للحياة أغراضاً تسير نحوها ، وتحاول أن تصوغ المادة فى القوالب التى تبلغها هذه الأغراض ، أم هى تيار آلى أى كالآلة ليس لها غرض ، تسير فى العالم كما يسير الماء على الأرض . فهذا حجر يعوقه ، وهذا عائق يحرفه عن استقامته ، وهذه وهدة ينحط اليها وهلم جرا ؟

كلا . فانما الحياة فى رأى برجسبون ترمى الى غرض ، وتتجه نحو قصد ، وهى لاتكف عن الاختراع لكى تبلغ هذا القصد

ولنضرب لذلك أمثالاً :

١ – فهذا العقل الانسانى نعرف كلنا أنه يتحيز فى الجهاز العصبى الذى يحتوى على الدماغ . وهذه الاعصاب تسيطر على أجسامنا ، وهى وسيلة التفكير . فالجهاز العصبى من حيث التطور ، ومن حيث محاولة الحياة التسلط على المادة ، ومن حيث أنه أصل الذهن غرض من أغراض الحياة . ولذلك فان الحياة تحافظ على هذا الجهاز أبلغ محافظة وتحوطه بأكبر ضرب من العناية . فان الحيوان إذا قطع عنه الطعام ، فإنه يأكل نفسه ، فتضمر جميع أعضائه ويهزل . فالكبد ينزل إلى نصف أو ثلث وزنه . والعضلات تنزل إلى ربع أو خمس ماكانت . إلا الأعصاب فانها تبقى كاملة لاتمس حتى الموت . فكأن مادة الجسم كلها تخدم الجهاز العصبى ، وكأنه لامعنى لوجودها إلا لهذه الخدمة ، وكأنها تضحى بنفسها لأجل الأعصاب

٢ – إن الحياة تقصد إلى غاية جمالية قد تكون نافعة للحيوان ، ولكن ليس بها أدنى منفعة للنبات . نعنى بها اتساق الجسم وتوازنه بحيث يمينه

يقابل يساره . وقد سارت نحو هذه الغاية فى النخل مثلا فنظرت فيه إلى الاتساق والتوازن ، مع أننا لانرى الفائدة للنخل من ذلك . ولكننا لايمكن أن ندرك بالنخل أن فكرة الاتساق والتوازن موجودة قديمة فى معين الحياة الأصلى . وأنها أى الحياة تسير نحوه فى النبات كما سارت فى الحيوان ، مهما اختلفت البيئة التى ينشأ فيها النبات أو الحيوان . ومعنى ذلك أن الحياة ليست شيئاً آليا كالماء يسيل ويستقيم وينحرف طبقاً لظروف المكان . بل هى لها غاية رمت اليها فى الحيوان والنبات وحققتها

٣ – نعرف أن الحياة قسمت أجسام الحيوان الى جسمين هما الذكر والأنثى . وهذا بالطبع اختراع مفيد للحيوانات . ولكنها سارت هذه السيرة نفسها فى النبات مع عدم فائدة ذلك للنبات . ونحن أنفسنا نثبت عدم الفائدة باننا لانزرع بزر العنب أو بزر الموز وإنما نعمد إلى الغصون أو الفسائل فنزرعها . ومعنى هذا أن الحياة رمت إلى غرض وهو تقسيم الحى إلى ذكر وأنثى وابتدأت بذلك فى الحيوان ، ثم عادت فحققته فى النبات ، مع عدم فائدته له

فهذه أمثلة ثلاثة تثبت أن الحياة ترمى إلى غرض وتسير نحو غاية . فهى تعنى أكبر العناية بالذهن الانسانى ، لانه وسيلة تحريرها من المادة . ولعله يوماً ما يستطيع أن يتسلط على المادة تماماً حتى يصوغها كما يشاء ويخلق منها مايشاء . ثم هى ترمى الى هيئة الاتساق والتوازن . وقد حققت هذه الهيئة فى الحيوان منذ زمن بعيد جداً . وعادت فحققته فى أحدث النباتات وهو النخل . ثم ازدواج الجنسين غاية أخرى حققتها الحياة فى الحيوان ، ثم عادت فحققتها فى النبات بلا أدنى فائدة للنبات من ذلك

فالحياة اذن ليست آلية ، يتسلط عليها الوسط كما يتسلط سطح اليابسة على الماء الذى يسيل عليه . بل هى عنصر مدرك يرمى إلى غرض ويسير نحوه . والمادة تعوقه فى سيره ، ولكنه يتخطى العوائق أو يزوغ منها حتى يبلغ غايته

* * *

لقد طال هذا المقال حتى صرت أخشى أن تختلط على القارىء أركانه . فأنا هنا ألخص ماذكرته ثم أعقب عليه بنقد يسير

فبرجسون يعتقد أن النظر الصوفى دون النظر العلمى جدير بأدراك ماهية الحياة ، أى سر الكون أو الله نفسه . والنظر الصوفى يعتمد على البصيرة دون النظر العلمى الذى يعتمد على الذهن

ثم هو يعتقد أن البصيرة كامنة فى الانسان يمكن استنباطها من النفس بالرياضة كما يفعل الصوفيون . وهو يعتقد أن البصيرة أجدر من الذهن فى ادراك الكون لأنها تنبع من الغريزة ، والغريزة ألصق بالحياة من العقل الذى نبع منه الذهن

هذا هو الشطر الأول من فلسفة برجسون . والشطر الثانى هو أن الحياة خالقة ، وانها ترمى إلى غاية ، تحاول أن تحققها وأن تتغلب على عوائق المادة فى تحقيقها

فأما هذا الشطر الثانى فلا يمكن مناقشة برجسون فيه . فإن الحياة لاتخبط ، بل ترمى إلى غاية . وهذه الغاية كما يبدو لنا من استقراء التطور غير مضمرة اضمار تعيين وتحديد ، وإنما هى مجملة فيها ، تتكيف وفق الظروف . لأننا لو فرضنا أن هذه الغاية محددة معينة ، لما كانت الحياة حرة . ولكن استقراء التطور يدل على هذه الحرية

أما الشطر الأول وهو أن الذهن فى حاله الحاضرة قاصر عن ادراك كنه الحياة ، فصحيح لاغبار عليه . ولكن القول بأننا لن نفهم الحياة إلا بالبصيرة فقول يحتاج إلى اختبار شخصى . وهو مثل القول الأرواح ، إذا لم يختبره الانسان بنفسه لم يصدقه . ولكن ألا يمكن أن يكون قصور الذهن الآن عن ادراك كنة الحياة راجعاً إلى أنه لم يتطور التطور الكافى ، وأنه إذا نشأ لنا فى المستقبل حاسة سادسة أو سابعة أمكننا أن ندرك أشياء تربك أذهاننا الآن ، مثل معنى الأزل أو الأبدية ، ومثل البعد الرابع عند اينشتين ونحو ذلك ؟ ثم ألا نرى أن عناية الحياة بأعصابنا دليل على أنها ترمى من جهازنا العصبى بما فيه دماغنا إلى هذه الغاية ، وعندئذ تكشف لنا الحياة سرها ؟ وإذا كان الأمر كذلك فالذهن يمكنه فى المستقبل أن يقوم مقام البصيرة البرجسونية

والمشقة فى الايمان بالبصيرة هى كما قلت أن البصيرة اختبار شخصى . وكونها كذلك لاينفيها ولايثبتها . ونحن الآن فى زمن علمى لايمكننا أن نقول فيه بوجود البصيرة ، لأن طائفة من الصوفيين قالوا باختباراتهم الشخصية لها . لأن هذه الاختبارات « شخصية » وليست عمومية

ولست أيضاً أشك فى أننا نهتدى أحياناً فى الفلسفة أو الدين ، أو حتى فى الأدب ، بما يشبه أنه يعدو الذهن ، وبما يشبه أن يكون « بصيرة » . ولكن ما أدرانا أن هذه « البصيرة » هى ثمرة الذهن ، قد اندست الى العقل الباطن ، حتى ضاعت منها العلل والاسباب ، ثم بدت لنا كأنها وحى وألهام ؟

وخلاصة ما أقول أن برجسون يربكنى ولكنه لايقنعنى

على مفترق الطرق

أو

خاتمة اليوم والغد

وهو بحث عن الأمة المصرية ؟ هل هى أمة أوربية يجب أن تسير مع الأمم الأوربية وتتثقف بثقافتها ، أو أمة شرقية يجب أن تحتفظ بما ورثته عن الشرق ؟

١ – التردد بين الشرق والغرب

مضى علينا أكثر من ١٣٠ سنة ونحن فى موقف التردد ، لاندرى هل نحن شرقيون يجب أن نسير على ماسارت عليه آسيا أم غربيون يجب أن ننضم إلى أوربا قلبا وقالبا . نعتاد عادات الأوربيين ،ونلبس لباسهم ، ونأكل طعامهم ، ونصطنع أساليبهم فى الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة

ولقد شرع نابليون يغرس فينا الحضارة الأوربية ، ويزيل عنا كابوس الشرق . وكانت أولى بركاته علينا أن شتت شمل الأوغاد المخانيث الذين كانوا يدعون المماليك . وكان هؤلاء المماليك عاراً علينا ، بل لايزال تاريخهم عاراً علينا لن يمحى . فقد كان يؤتى بهم صبياناً لأغراض سافلة ، حتى إذا شبوا حملوا السيف وعاثوا فى البلاد وأذلوا آباءنا

وكانت ثانية بركاته أنه أسس لنا مجلساً نيابياً هو أول الأنظمة النيابية فى مصر

ثم جاء محمد على فاعتمد على فرنسا فى تمدين البلاد . ولكن هذا الرجل لم يكن يثق بالمصريين أو يحسب لكرامتهم . ولذلك كانت بعثاته

إلى أوربا مؤلفة من أبناء المخانيث المماليك الذين ذبحهم هو بالقلعة ، أو من أبناء الجنود المقدونيين . بل بلغ من احتقاره للمصريين أنه جمع عقود الامتلاك منهم وأحرقها ، وأدعى أنه هو المالك لأرض مصر كلها . ولكنه مع كل هذه الأعمال كان يؤمن بالحضارة الغربية ، فأسس المصانع على النمط الأوربى ، وأوجد فى الأهلين روح العمل بعد أن كانت طبائع الاستبداد الشرقية قد طبعت فى الناس حب الخمول والدعة

ثم استمررنا نتراوح بين الشرق والغرب حتى زمن اسماعيل ، حين رأى بنافذ بصيرته أنه لابد لنا من أن نتفرنج ، ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا . فأنشأ مجلساً نيابياً ، وأسس مجلس وزراء ، وكانت حكومتنا إلى وقته تسير على مبدأ هارون الرشيد أو أمبراطور الصين . ثم جعلنا نلبس الملابس الأوربية ، ووزع بين أعيان البلاد فتيات من الشركس لكى يتحسن اللون ويقارب البشرة الأوربية

ثم حاول عرابى بعد ذلك أن يؤسس مجلساً نيابياً صحيحاً ، ويسير بالوطن فى تيار الحضارة الأوربية ، ولكن انضمام الخديوى توفيق إلى الأنجليز وخيانة الأعراب البدو فى الشرقية حالا دون تحقيق غرضه السامى

وجاء الانكليز ، فساروا بنا شوطاً بعيداً فى ادخال الأساليب الأوربية فى ادارة الحكومة . ولكنهم كانوا يرمون إلى غرض الاستعمار ، فلم يعملوا لنشر الحضارة بين الأمة

وهانحن أولاء نجد أنفسنا الآن مترددين بين الشرق والغرب . لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوربية ، ولكن فى وسط الحكومة أجساماً شرقية مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد . ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدين ، ولكن كلية الجامع الأزهر

تقف إلى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة . ولنا أفندية قد تفرنجوا ، لهم بيوت نظيفة يقرأون كتباً سليمة . ولكن إلى جانبهم شيوخاً لايزالون يلبسون الجبب والقفاطين ، ولايتورعون من التوضأ على قوارع الطرق فى الأرياف ، ولايزالون يسمون الأقباط واليهود « كفاراً » كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل ١٣٠٠ سنة

فنحن كما قلنا فى موقف التردد بين الشرق والغرب . ومع أن معظم رجالنا غربيون فى أفكارهم ومعيشتهم ، فإن معظم نسائنا لايزلن يعشن كما تعيش الهندية أو الصينية تحتجب وتقصر حياتها على الطبخ وتنظيف المنزل

٢ - هل نحن شرقيون ؟

إن للألفاظ تأثيراً كبيراً فى العقول . فإذا نحن غرسنا فى أذهان المصرى أنه شرق ، فإنه لايلبث أن ينشأ على احترام الشرق وكراهة الغرب . وينمو فى نفسه كبرياء شرق ، ويحس بكرامة لايطيق أن يجرحها أحد الغربيين بكلمة . فينشأ على كراهة الحضارة الغربية ويقاومها ولايصطنعها إلا مقهوراً مغلوباً على نفسه

ولكن الواقع أننا لسنا شرقيين . وإنما جاءنا هذا الاسم من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية . والأوربى لايخطر فى باله عندما يسمى أهل القسطنطينية أو أثينا

أو مقدونيا أو سوريا أو مصر شرقيين ، أنها كلها « شرقيه » مثل اليابان أو الصين

فاطلاق اسم الشرق على مصر خطأ فاحش . فقد عشنا نحن نحو ألف سنة ونحن جزء من الدولة الرومانية . بل فى اللغة العربية نفسها أكثر من ألف لفظة رومانية وأغريقية تدل على مقدار شمول النفوذ الرومانى والثقافة الأغريقية للعرب . فلا نحن ولا العرب أمة شرقية بالمعنى الذى نفهمه عندما نقول أن اليابانيين شرقيون . ونحن إذا رأينا أقبح أمرأة أوربية لقلنا انها جميلة إذا قوبلت بأجمل أمرأة صينية ، لأن ذوقنا ودمنا هما الذوق والدم الغربيان

ثم نحن فى هيئة الوجه أوربيون . ولو لبس السورى أو العربى أو المصرى قبعة ، لما استطاع الانسان تمييزه من الايطالى أو الأسبانى . ولكن مهما لبسنا فاننا نتميز من الصينى أو الجاوى أو اليابانى

وأخيراً يجب أن نقول أن اليوت سمث قد أثبت أن الشعب الأول الذى سكن مصر ، لايختلف البتة عن الشعب الذى كان يسكن انجلترا قبل ٤٠٠٠ سنة . وبين المصرية القديمة والانجليزية الراهنة مئات الألفاظ المشتركة لفظاً ومعنى

٣ – الدم الشرقى فينا

ولكن ليس معنى ذلك أن الدم الشرقى لم يتسرب إلى عروقنا فإنه للأسف قد تسرب ، وقد جلبه علينا العرب بما فتحوه من الأقطار

الآسيوية . فمنذ القرن الثالث الهجرى ، تسمع عن دولة الأخشيديين التى جاءت من وسط آسيا قريباً من بخارى ، حيث حلت فى مصر بجيوشها وحكمتنا ، واختلطت دماؤها الآسيوية بدمائنا . ثم جاءنا بعدهم المماليك الأتراك ، ثم الأتراك العثمانيون . بل قبل ذلك فى أيام الفراعنة حل الهكسوس وامتزجوا بالمصريين

ولكننا مع كل ذلك بقينا أوربيين فى تقاسيم وجوهنا ونزعات نفوسنا . ويجب ألا ننسى أن الآسويين قد دخلوا أوربا وتفشوا فيها . وكثير من الرؤوس المستديرة فى فرنسا وهنغاريا وسويسرا وألمانيا يرجع إلى أصل آسيوى

٤ – أوربا أم آسيا ؟

ولكن تعصب بعضنا للشرق هو تعصب للقديم أكثر مما هو للشرق . فهم يستمسكون بالشرق لكى يتعللوا به فى كراهية الغرب ، ويستمسكون بالقديم كبرياء وأنفة من أن يقال أن حضارتنا باعتبارنا شرقيين قد أفلست أمام حضارة أوربا

وقد شعرت أنا نفسى بمثل هذا الشعور سنة ١٩٢٠ حين كتب السرهرى جونستون مقالاً فى « ذى نيو ستيتسمان » يطلب فيه الغاء الأزهر لأنه مبعث التعصب . فرددت أنا عليه مع انى قبطى أنكر أن الأزهر مبعث تعصب . لأنى شعرت أن كرامة هذا المعهد المصرى تلصق بكرامتى الوطنية . فما يشينه يشيننى . ولكنى إذا حاورت مصرياً فى

شأنه ، لا أتردد فى القول بالغائه والاكتفاء بالجامعة المصرية . لأنها أداة الثقافة الحديثة النيرة ، أما هو فأداة الثقافة المظلمة ، ثقافة القرون الوسطى

وخلاصة القول أننا نطلق على أنفسنا صفة الشرق بلا حق ، لأننا غير شرقيين . ثم نتعصب لهذا الشرق ، ونقيم فى أذهاننا منه غرضاً ، نكره به الغربيين والحضارة الغربية . ثم نتعصب للقديم أنفة منا ، ونسمى هذا القديم أيضاً « شرقاً » فنتعلل به لكراهة الغرب . ولكن الواقع أن هذا القديم ليس فيه شيء من الشرق . والأزهر الآن لايختلف عن جامعات أوربا قبل ٧٠٠ سنة . وهو يعرف ارسطوطاليس الأغريقى ، ولكنه لايعرف بوذا الهندى أو كنفوشيوس الصينى . فحقيقة الأزهر أنه جامعة أوربية أسسها رجل أوربى هو جوهر « الصقلى » وعيبه الوحيد أنه قديم يشتغل بثقافة قديمة بائدة فى عصر حديث . وايثاره على الجامعة المصرية يشبه ايثار الجمل على الأتومبيل ، أو الحمار على الطيارة

واذا كنا نحب السير مع اوربا ، فليس ذلك لأننا والأوربيين من دم واحد واصل واحد فقط ، بل لان ثقافتنا تتصل بثقافتهم من عهد مدرسة الاسكندرية ومجمع اثينا . وايضاً لان حضارتها هى حضارة العالم الحديث كله

٥ – ماهى ثقافة العرب ؟

ان هذا الاعتقاد باننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض . ولهذا المرض مضاعفات . فنحن لا نكره الغربيين فقط ، ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط ، بل يقوم بذهننا انه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية . فندرس كتب العرب ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب كما يفعل ادباؤنا المساكين امثال المازنى والرافعى . وندرس ابن الرومى ، ونبحث عن اصل المتنبى ، ونبحث عن علي ومعاوية ونفاضل بينهما ، ونتعصب للجاحظ ، ونحاول أن نثبت أن العرب عرفوا الفنون كالتصوير والنحت على الرغم من تحريم الاسلام لهما .وكل ذلك انما يدفعه فى انفسنا كراهتنا للغرب وانفتنا من جهة ، واعتقادنا اننا شرقيون من جهة أخرى

ولكن الواقع ان ثقافة العرب القديمة لا تختلف عن ثقافة اوربا القديمة . وقد كانتا كلتاهما تستقيان من معين واحد هو الفلسفة الاغريقية . فاذا نحن المتجددين قلنا بترك العرب وثقافتهم ، فمعنى ذلك انه يجب علينا أن نتطور ونخرج من تلك القيود الاغريقية القديمة ونسير فى الثقافة الحديثة

وليس علينا للعرب أى ولاء . وادمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم . فيجب أن نعودهم الكتابة بالاسلوب المصري الحديث لا بالاسلوب العربى القديم . ويجب أن يعرفوا اننا أرقى من العرب . وان أقل مافينا اننا نسبقهم بألف سنة . وليس معنى هذا تحريم

درس العرب وتاريخهم وثقافتهم . فان العرب أمة قديمة يجب أن يكون لها أثريون ، يدرسونها كما يدرسون اشور أو بابل . وانما يجب أن يكون لنا أدب خاص يتسم بسمة القرن العشرين ، ويجرى على لغته ، ويسير على انماطه . ويجب أن ننظر الى لغة النابغة أو المتنبى كما ننظر الى اللغة الروسية أو الايطالية ، لأنها ليست لغتنا ولسنا نستفيد بدرسها . ثم يجب أن نذكر ان ادمان الدرس للعرب يشتت الادب المصرى ويجعله شائعاً لا لون له

٦ - حكومة العرب

ليس من مصلحة الشباب المصرى أن يقف على أدب العرب ويتلمسه مباشرة من الكتب القديمة . فأنا لا أحب مثلاً ان تقع عين فتى أو فتاة على الاشعار المذكورة فى كتب الأدب بشأن الغلمان . ومهما احسنا الاعتقاد فى الاثر الذى تتركه قراءة هذه الأشعار ، فاننا لايمكن أن نغضى الطرف عما يفعل ايقاع الشعر فى نفس الشاب من تحسين الرذائل له . وكم من شاب رأيناه يتغنى بهذه الأشعار ويمارس الرذائل التى تقول بها . والنفسلوجية الحديثة تقرر انه لا يرد بالرأس خاطر ليس له اثر فى النفس والخلق . ثم لست أحب أن يقرأ الشباب ان أحد قواد العرب ، وهو يزيد بن المهلب ، عجن الدقيق بدماء أعدائه وخبز منه الخبز وأكله . وكذلك ليس من مصلحة بلادنا الدستورية أن يمدح هرون الرشيد أو

المأمون ، مع أن كلا منهما كان حاكماً مستبداً لا يختلف أى اختلاف عن عبد الحميد الذى خلعه الاتراك عن عرشه

فالحكومة العربية كانت فى أرق وأحسن أوقاتها حكومة استبدادية ، ولا عبرة لما يقال بان الاسلام يأمر بالشورى . فان عمر بن الخطاب نفسه لم يكن يستشير احداً فيما يراه خيراً لرعيته . دع عنك انه ليس فى الشورى معنى الالزام . وجميع خطب الخلفاء تثبت انهم كانوا ينظرون الى أنفسهم نظراً بابوياً ، بل البابا نفسه اذا قيس اليهم فى بعض الاشياء يعد دستورياً

٧ – لنا من العرب ألفاظهم فقط

ولا أقول لغتهم . بل لا أقول كل الفاظهم . فاننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية ، وهى لغة بدوية لا تكاد تكفل الأداء اذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التى نعيش بين ظهرانيها الان . فها انا ذا فى غرفتى هذه لا اعرف كيف أصف اثاثها بالعربية ، ولكنى استطيع اجادة وصفها بالانجليزية . واللغة العربية مع ذلك لغة شاقة تكد الذهن فى حفظ قواعدها التى لا تنتهى . كانه ليس فى العالم شىء جدير بالدرس غير قواعدها . وكل من اختبرها يعرف ان قاسم امين ولطفى السيد كانا على حق عندما نصحا باستعمال العامية المصرية المهذبة بدلاً منها

وهذا مايجب نحن أن نفعله . يجب أن ننظر الى لغة امرىء القيس والى تمام كما ننظر الى لغة شكسبير . فلا نستعملها فى لغتنا ، وانما نستعمل

العامية المهذبة التى تخاطب بها امهاتنا واولادنا لانها هى اللغة الحية . وهى انما تجرى على السنتنا بعد موت اللغة الفصحى ، لانها قد نازعتها البقاء وتغلبت عليها لفضلها . وهذا اذا فرضنا أن اللغة الفصحى كانت يوماً ما يتكلم بها الناس . فان اعتقادى انها كانت الى حد بعيد لغة الكتابة فقط ، اى لغة ميتة حتى فى زمن ظهور القرآن

ولكن تعليم العربية فى مصر لايزال فى ايدى الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نقعاً فى الثقافة العربية ، اى فى ثقافة القرون المظلمة . فلا رجاء لنا باصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه ، ونسلمه للافندية الذين ساروا شوطاً بعيداً فى الثقافة الحديثة

ونحن انما ننزع للغة العرب القديمة ، لما تأصل فى أذهاننا من ذلك الغرض السخيف . وهو اننا شرقيون يجب علينا أن نحافظ على كرامة العرب وندافع عن تاريخهم . وهذا الاعتقاد فى شرقيتنا يجر علينا عدداً من الكوارث قد لا يكون الولاء للغة أهونها

٨ – الرابطة الشرقية سخافة

واحدى كوارث هذا الاعتقاد فى شرقيتنا ، اهتمامنا بالشرق دون الغرب . حتى لقد تأسست فى القاهرة جمعية تدعى « الرابطة الشرقية » فيها اعضاء من الهند وجاوه ولعل بها ايضاً اعضاء من الصين

فما لنا ولهذه الرابطة الشرقية ؟ واية مصلحة تربطنا بأهل جاوة ؟ وماذا ننتفع منهم ، وماذا هم ينتفعون منا ؟

انى اعتقد اننا لو كنا شرقيين حقاً ، لكانت هذه الرابطة من اسخف الروابط . فان جميع الدول الشرقية التى تدخل فى هذه الرابطة من العجز بحيث لاتنفع نفسها ، ولا تستطيع رد عادية الاجنبى المستعمر عنها فكيف تدفع عن غيرها هذه العادية ؟ اجل . كيف يقود الاعمى أعمى وكيف يحمل الاعرج أعرج ؟

اننا فى حاجة الى رابطة غربية . كأن نؤلف جمعية مصرية يكون أعضاؤها من السويسريين والانجليز والنروجيين وغيرهم . نقعد معهم فنستفيد من شرعة اصلاحية انفذت فى بلادهم ، يشرحونها لنا ، فننتفع بذلك . أو فلسفة جديدة ظهرت يعرفوننا شيئاً عنها ، أو آلة جديدة اخترعت نتفاوض معهم فى استعمالها عندنا

مثل هؤلاء الناس النظاف الأذكياء نستطيع أن نؤلف رابطة معهم ، ولكن ماالفائدة من تأليف رابطة مع الهندى أو الجاوى ؟

أننا أمة قد سرنا شوطاً بعيداً فى الحضارة الغربية ، التى هى منا ونحن منها . واذا أراد الشرق أن يسير معنا فنعم مايفعل ، ولكن ليس معنى ذلك أن نسير نحن معه ونتأخر عن اللحاق بالأمم الراقية . ونحن بعبارة واضحة فى حاجة الى أن نرق أنفسنا قبل أن نشتغل بترقية الشرقيين

٩ – الرابطة الدينية وقاحة

اذا كانت الرابطة الشرقية سخافة لانها تقوم على أصل كاذب ، فان الرابطة الدينية وقاحة . فاننا أبناء القرن العشرين اكبر من أن نعتمد على

الدين جامعة تربطنا . وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا ، ولايزال فلول المحررين من المؤيد والحزب الوطنى يخبروننا ، نحن المصريين ، عن الاسلام فى الصين تحت عنوان « أخبار العالم الاسلامى »

وقد شبعت تركيا من الجامعة الاسلامية ونفضتها عن نفسها وتخلصت منها ، لا لأنها أضاعت دينها ولم تعد تؤمن به ، بل لأنها لم تعد تؤمن بفائدة الجامعة الاسلامية بعد أن خبرتها فى الحرب الكبرى فوجدتها قصبة مرضوضة لا تغنى ولا تنفع

والغريب أننا فى الجامعة الاسلامية نتأخر عن الزمن الحاضر بنحو ألف سنة . فقد كان لأوربا جامعة مسيحية هى أصل الحروب الصليبية . وقد أسفت أوربا على ارتباطها بهذه الجامعة ، ولم تعد اليها ، بعد أن خسرت فيها الأموال والارواح

والدين الآن ليس تشترك فيه الجماعات ، وانما هو عقيدة يعتقدها الفرد عن علاقته بالكون . ويبدو لى انه لايمكن أن يتفق اثنان فى العالم فى عقيدة دينية ، كما لا يتفقان فى ملامح الوجه . فديانة المستقبل هى ديانة فردية وليست جماعية ، بل هى صوفية حرة لا يتقيد فيها فرد بما يؤمن به فرد آخر أو أمة أخرى

وكيف يمكننا أن نعتمد على جامعة دينية ، بينما فى العالم نظرية تقول ان الانسان لم يكن راقياً فانحط كما تقول الاديان ، بل هو كان منحطاً فارتقى . نعنى بها نظرية التطور . بل كيف يمكن انساناً مستنيراً قرأ تاريخ السحر والعقائد أن يطلب منه أن يحترم جامعة دينية ؟

ان الجامعة الدينية فى القرن العشرين وقاحة شنيعة

١٠ - الرابطـة الحقيقـية

الرابطة الحقيقية التى تثبت على قاعدة ، وترسخ ولا تتزعزع ، هى رابطة الحضارة والثقافة . هى رابطتنا باوربا ، التى عنها أخذنا حضارتنا الراهنة ، ومنها تثقفنا ثقافتنا الجديدة

اجل يجب أن نرتبط بأوربا ، وأن يكون رباطنا بها قوياً . نتزوج من ابنائها وبناتها ، ونأخذ عنها كل مايجد فيها من اختراعات أو اكتشافات . وننظر للحياة نظرها . نتطور معها فى تطورها الصناعي ، ثم فى تطورها الاشتراكى والاجتماعى ، ونجعل أدبنا يجرى وفق ادبها بعيداً عن منهج العرب . ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ، ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها ونسير مع عمالنا بطرق الاصلاح والبر التى سارت عليها . نرسل اولادنا اليها ليتعلموا علومها ويتخلقوا باخلاقها

فالرابطة الغربية هى الرابطة الطبيعية لنا ، لاننا فى حاجة الى أن نزيد ثقافتنا وحضارتنا . وهما لن تزيدان من ارتباطنا بالشرق ، بل من ارتباطنا بالغرب

اننا اذا ارتبطنا بالغرب تعلمنا فلسفة عالية ، وأدباً راقياً ، ووقفنا على اختراعات عديدة ، واكتشافات لا حصر لها فى الطبيعة والكيمياء والصناعة . ولكن بماذا ننتفع اذا نحن ارتبطنا بالشرق ؟

اننا اذا ارتبطنا بالغرب ، نركب الطيارات ونصنعها ، ونسكن فى بيوت نظيفة ونبنيها ، ونقرأ كتباً مفيدة ونؤلفها . ولكن ماذا نستفيد من الارتباط بالشرق ؟

ألا يرى القارىء ماجره علينا تعلقنا بالشرق ، وتوهمنا أننا أمة شرقية ، حتى اننا ليس لنا مايغذى عواطفنا الان من شعر أو موسيقى أو رقص أو غناء ؟

فرقصنا هو هذا الرقص الآسيوى اللعين . وهو رقص شهوانى بهيمى ، لا نطيق أن نراه الا ونحن سكارى . وقد احتجنا فى النهاية الى الغائه الغاء تاماً . ثم هذا الغناء ، وهذه الموسيقى الباكية المبكية ، نحاول اصلاحهما ولكن عبثاً . لانهما صارا لا يتفقان مع مزاجنا . فقد كانا يصلان الى قلوبنا فى العصور الماضية عندما كنا نبكى ببكائهما . وانما كنا نبكى لما كنا نقاسيه من ظلم الاسيويين وتوحشهم . ولكننا نحتاج الان الى مايهيج قلوبنا ، ويملأها تفاؤلاً بالحياة ، ولن نجد ذلك الا بارتباطنا بالغرب واصطناع ماعند الغربيين من رقص وألحان وموسيقى . أما الشعر العربى ، فقد سئمنا قوافيه الرتيبة التى تشبه دق الطبل عند السودانيين .

١١ – هل من وطنية فرعونية ؟

ولكن هل الغاية من التخلص من آسيا ، والشرق ، والتاريخ العربى ، أن نعود الى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخها ؟

لست أشك فى أننا لو فعلنا ذلك لكان أصلح لنا . فمصر وطننا . وماذا يعيبنا اذا كببنا على درس تاريخه ؟ وخاصة بعد إذ ثبت أن مصر هى أصل حضارة العالم القديم كله . فكأننا ندرس العالم بدرسها

خير لنا أن ندرس الفراعنة من أن ندرس العرب . لا لأنهم جدودنا فقط ، بل ايضاً لأن فى درسهم تفتيقاً للأذهان . إذ نقف من تاريخ نشوء الحضارة المصرية القديمة على تطور الذهن البشرى وايمانه بالعقائد الأولى ، وكيف نشأت الأديان والاساطير ، وأسست الملوكية وحقوق الامتلاك ونحو ذلك . فمعرفة تاريخ المصريين القدماء هى تربية جديدة لنا

ولكن صلتنا بالفراعنة قد انقطعت ، إذ لا نتصل الآن بهم بثقافة أو حضارة . وغاية مانرجوه أن يختص عندنا شبان بدرسهم كما يختص آخرون بدرس العرب . وكلا الفريقين يشتغلان فى درسهما بالآثار . واذا كان المصريون القدماء لا يدخلون الآن فى عقائدنا أو أدبنا أو علمنا ، فليس لأحد أن يقحم أدب العرب أو عقائدهم أو علمهم على آدابنا وعقائدنا وعلومنا وحضارتنا

فالمصرى القديم ، والعربى القديم ، من الآثار التى ندرسها كما ندرس الفينيقى القديم . وان كان المصرى يمتاز بأنه ينير أذهاننا عن نشوء الحضارات الأولى . ولكن المهم الذى أرى وجوب تأكيده أننا ونحن نخلع أنفسنا من الشرق ، لا نفعل ذلك لكى نعود الى وطنية فرعونية . كلا . انما نريد وطنية مصرية حديثة تنهج منهج القرن العشرين فى الوطنيات والقوميات وتسير على المبادىء الاوربية فيهما

١٢ – تطور الوطنية المصرية

وربما كان اسماعيل باشا أول من بذر بذور الوطنية المصرية . لأنه هو الذى جعل الأمة تصطنع الحضارة والمبادىء الغربية . والوطنية مبدأ أوربى لم يعرفه العرب قط . ولذلك لا وجود لهذه الكلمة فى المعاجم العربية ، لأن العرب لم يعرفوا سوى الاسلام جامعة تجمعهم ، ولها يجاهدون الكفار ولو كانوا من أهل وطنهم . وكذلك كان حال أوربا فى القرن الحادى عشر والثانى عشر ، حين خرج الاوربيون يقاتلون المسلمين فى فلسطين ومصر

وظهر عرابى ، وحاول أن يقوى هذه الوطنية ، ويجعل مصر أمة دستورية . ولكنه خاب فى مسعاه . ثم حدث ارتداد فى الفكرة الوطنية بظهور مصطفى كامل ، والخديوى عباس ، والمؤيد . فان كل هؤلاء عادوا الى جامعة الاسلام ، وكانوا يقولون ان مصر هى من أملاك الدولة « العلية » أى التركية . وكانت الآستانة عندهم « دار السعادة » أما القاهرة فهى القاهرة فقط . وكان المصرى عثمانياً يجب عليه أن يحارب المقدونيين للدفاع عن عبد الحميد ورعيته . وكان عبد الحميد خليفة المسلمين الذى يجب على كل مصرى أن يطيعه . وأوشك مصطفى كامل ومحررو جريدته . أن يحدثوا فتنة بين الأقباط بهذا السخف والهراء

ولكن الأقدار هيأت لنا رجلاً آخر هو لطفى السيد « صاحب الجريدة » . فانه نظر حوله فرآنا شائعين فى العالم الاسلامى ، ورأى

الأذهان قد زاغت عن الصراط الوطنى . حتى كان المزارع أو التاجر أو الصانع المصرى يبالى بقراءة أخبار المسلمين فى أدرنة أو بخارى ، أكثر مما يبالى بحادث قتل فى الجيزة . وعندما شبت الحرب بين تركيا واليونان سنة ١٨٩٨ ، جمع المصريون نحو ستين الف جنيه أرسلوها الى الاستانة لمعاونة الاتراك . مع انهم كانوا فى حاجة الى ستين الف مليم لتعليم صبى مصرى

وشرع لطفى السيد يكتب لنا دروساً كل يوم عن الوطنية ، وأن المصرى يجب أن يقصر جهوده على مصر . ودأب فى ذلك ثمانى سنوات . يلطم فيها الخديوى عباس كل يوم لاتفاقه مع الانجليز وحرمانه الأمة من الدستور . وأخذ يفشى المبادىء الاوربية بيننا عن العائلة ، وحرية المرأة ، واللغة والأدب ، والسياسة . ورأى الأقباط بعد أن كانوا لا يهتمون بوطنية الخديوى عباس ومصطفى كامل والمؤيد ، أن وطنية لطفى السيد مصرية لا شائبة فيها ، وانها لاتزيغ بهم الى الجامعة الاسلامية ، أو الجامعة العثمانية ، فصاروا يؤمنون بالوطنية . حتى اذا كانت سنة ١٩١٩ ، هبوا مع اخوانهم المسلمين كتلة واحدة للدفاع عن مصر

فالاتحاد الذى نراه الآن بين الأقباط والمسلمين يرجع الى لطفى السيد ، لا الى الحرب الكبرى كما يظن بعض شبابنا

١٣ - نحن والعالم

ولكن وطنيتنا يجب أن تكون نيرة بارة . فاذا كنا نضحى بانفسنا لأجل مصر ، فيجب أن نضحى بمصر لأجل العالم . فالعالم هو وطننا الأكبر . وليست ترتكز الوطنية على اننا نحب مصر أكثر من العالم ، بل على اننا نستطيع خدمتها اكثر مما نستطيع خدمة العالم . لأننا نعرفها ، ونقف منها على امكنة الخلل والنقص ، فيمكننا أن نخدمها . اما العالم فخدمتنا له محدودة بحدود جهلنا له

ويجب أن نطهر وطنيتنا من جميع أفكار القرون الوسطى ، من فكرة التوسع والطمع وامتلاك السودان ونحو ذلك . فكل مانريده أن نستقل فى شئوننا الوطنية ، ونسير فى العالم فى رقيه ، نؤدى الفرض الأول الواجب على كل أمة ، وهو زيادة المعارف الانسانية وترقية الحضارة . واذا شاء السودان أن يتحد معنا فله الخيار فى ذلك ، اما الاجبار والاستعمار فجناية يجب أن نترفع عنها

لقد عشنا فى القرن الماضى واوربا تعولنا بمخترعاتها ومكتشفاتها ، حتى لو انها قطعتها عنا لعدنا الى عهد المماليك . ومع ذلك لا يزال بيننا شيوخ مأفونون يعدون التفرنج رذيلة مع انه عين الفضيلة . حتى لقد نسبوا اليه من المعانى ماليس منهُ . فاذا رأوا امرأة متبرجة عدوا ذلك منها تفرنجاً . مع ان المرأة الافرنجية أبعد ماتكون عن التبرج . فمثلاً تزجيج

الحواجب والشفاه ، وصبغ الوجنات ، وكشف الصدر ، كل ذلك نراه فى المرأة المبرقعة المحبرة ولا نراه فى المرأة الغربية السافرة

اننا فى حاجة الى تنشئة الوطنية المصرية ، ولكن بحيث لا يلابسها أى روح من العدوان أو التنطع أو الكراهية لأوربا . ويجب أن تكون غاية كل مصرى أن يكون باراً بالعالم . فقد برزت أوربا العالم بمخترعاتها ومكتشفاتها . وحقنا فى الحياة والبقاء لايكون الا بنسبة مانستطيع أن نزود العالم من هذا البر السامى

وسبيلنا الى ذلك أن نتخلص من قيود الاستعمار البريطانى ، وندفع فى ذلك الثمن الذى تتطلبه منه أخطاؤنا الماضية . ولكن اذا اتفقنا فيجب أن نقضى على جميع مراكز الدسائس والرجعية والشرقية فى بلادنا . ولا بأس من ان ندفع ثمن ذلك ايضاً

١٤ – حضارتنا وحضارة أوربا

ان حضارتنا « العربية » هى فى الحقيقة حضارة رومانية . وأنا اذكر لك بعض الفاظ تنطوى فيها معانى الحضارة ، مثل قلم وقرطاس ودينار ودرهم وبلاط وقانون . فهذه الألفاظ تنطوى فيها معانى الكتابة والثقافة والتعامل المالى والحكومة ، هى الفاظ رومانية . وقد عشنا نحن المصريين الف سنة تقريباً من دخول الاسكندر لمصر الى دخول العرب ، ونحن على اتصال بثقافة اوربا عن سبيل الرومان والاغريق

ونحن المصريين لم نتصل قط بآسيا اتصالاً تاماً . فان الاخشيديين أنفسهم لم يعيشوا طويلاً فى مصر ولم يُدخلوا الى بلادنا الا القليل من عادات آسيا . ولذلك ليس مقدار ما تسرب الينا من دمائهم كبيراً . ومما نحمد الأقدار عليه أن التتار لم يدخلوا مصر قط

فالدعوى باننا أمة شرقية الدم أو الثقافة أو الحضارة ، هى دعوى زائفة لا أساس لها البتة . والعرب أنفسهم لم يكونوا فى أول خروجهم وتفشيهم أمة شرقية ، وان كانوا بتوغلهم فى آسيا الى حدود الصين ، وايضاً بعادة التسرى وعادة الضرار اللتين اجازهما لهم الاسلام ، قد دخلهم دم آسيوى وخاصة صينى كثير . فان لفظة أَمَة بمعنى الجارية ، هى لفظة صينية ، وقد دخلت اللغة العربية لكثرة الاماء التى كان يشتريها العرب من الصين

والأمة المصرية كانت فى الأصل ، أى قبل ظهور دول الفراعنة ، لا تختلف البتة عن الشعوب التى كانت تقطن انجلترا وفرنسا . فلما كان زمن الفراعنة دخل مصر كما دخل اوربا قليل من الدم الأرمنى . فاستدارت الرؤوس قليلاً بعد أن كانت مستطيلة . ولم يكن العرب يختلفون من حيث العنصر من المصريين . ثم اتصلنا نحو الف سنة بالرومان والاغريق أى من ٣٢٠ ق م . الى ٦٤٠ ب م . ثم دخل العرب ، ودخل فى دمائنا بعدهم قليل من الدم الاسيوى . ثم جاء الاتراك فلم يختلطوا بالأمة الا قليلا

وها نحن أولاء نرى أنفسنا فى تقاسيم الوجه نشبه الاوربيين أكثر مما نشبه الصينيين أو اليابانيين . وفى ثقافتنا نسير مع أوربا دون آسيا . وفى لغتنا اكثر من ألف كلمة اغريقية ورومانية . وفى حضارتنا لا نرى اى اختلاف بيننا وبين اوربا إلا من حيث الدرجة فقط . أما فى النوع

فكلتاهما واحدة . وأدياننا لا تختلف البتة من اديان اوربا ، حتى الاسلام نفسه يكاد يكون مذهباً من المسيحية . ولكن ليس فى الاسلام شىء يشبه عقائد البرهمية فى الهند أو الكنفوشيوسية فى الصين أو الشنتوئية فى اليابان

ومنذ القرن الماضى شرعنا نقتبس الحضارة الأوربية ، وسرنا فيها شوطاً بعيداً . فلنا الآن حكومة لها وزارة وبرلمان مثل حكومات اوربا . ولنا نظام تعليمى يشبه الانظمة الاوربية ، وان كان متأخراً عنها . ونحن فى معيشتنا لا نختلف من الاوربيين الا اختلاف الدرجة لا اختلاف النوع

فحضارتنا هى حضارة اوربا . والقول بالسير فيها الى غايتها ليس سوى القول بالتطور ، والانتقال من الحال الدنيا التى نحن فيها الى حال عليا

١٥ – الحضارة الصناعية

وهذا التطور يقضى علينا بأن نخرج من نهضتنا الحاضرة ، نهضة الزراعة والأدب ، الى نهضة أخرى هى نهضة الصناعة والعلم . لان هذه الزراعة التى نمارسها قد تعلمتها الأمم المتوحشة من جهة ، وسلطت عليها الآلات الكبرى عند الأمم المتمدينة من جهة أخرى . فصارت حرفة لاتجدى العامل بيديه كالفلاح المصرى . فان الفلاح الاميركى يزرع بالآلات نحو خمسين فداناً من القمح أو القطن ، بينما الفلاح المصرى لا يستطيع أن يزرع بيديه سوى فدانين أو ثلاثة . ولذلك فالاميركى

يستطيع أن يبخس الاسعار ويجعل منتجاتنا منخفضة الاثمان . والزنجى الذى تعلم الزراعة يزرع مثل فلاحنا بيديه ، ولكن لا يطلب من الأجر مقدار مايطلب فلاحنا . فهو لذلك أيضاً يمكنه أن يبخس اسعارنا

فنحن فى الحالتين قد قضى علينا بالهزيمة من حيث الزراعة امام هذه المزاحمة العالمية ذات الحدين : حد الآلات الكبيرة فى امريكا واوربا ، وحد الأجور القليلة فى آسيا وافريقيا

فيجب أن نخرج من هذا الطور الزراعى ، ونعمد الى الصناعة فنطرقها من جميع ابوابها . واذا قدرنا ان نجعل زراعتنا بالآلات فنعم مانفعل ، ولكن نظام الامتلاك فى مصر يمنع ذلك الان . فلابد لكى نسير مع اوربا أن نجعل بلادنا صناعية ، بانشاء المصانع من كل الأنواع

لكن انتشار الصناعة يحتاج الى شيئين :

أولهما : ايجاد رأى عام يحترم الصناعة ويساوى بين الموظف والخباز والحداد والنجار والمنجد

والثانى : ايجاد بيئة علمية غير البيئة الادبية المتسلطة الان . لأن هذه البيئة الأدبية التى تتسلط الان على عقول شبابنا ، تجرى على أصول السلف من العرب ، فتعنى بالالفاظ والعبارات المبهرجة . فادبها حتى عند معظم من يسمون أنفسهم بغير حق مجددين ، هو أدب رث يؤذى الناس ويزيغ ابصارهم ، لأنه يوهمهم أن التفكير هو اللعب بالالفاظ فقط واجترار أفكار القدماء . ولو كان ادبنا يجرى على النسق الروسى التحليلى ، أو يسير فى نزعة الحرية الفكرية مع الأدب الفرنسى ، أو فى نزعة الاصلاح مع الأدب الانجليزى ، لكان منه فائدة . اما وهو فى حاله الحاضرة فلا فائدة منه البتة . وهذه النهضة الصناعية التى نحن فى أشد الحاجة اليها لا تقوم الا فى وسط علمى ، بحيث يلوك الناس النظريات

العلمية ويفشونها بين العامة . فتتغير الأقدار والقيم ، ويفكر الشباب فى الاختراع والاكتشاف ، كما يفكرون الان فى قراءة مقال مبهرج ، يتمصصون عبارته ويتلمظون بها لحسن جرسها وتآلف ايقاعاتها

١٦ - ثقافة مصرية

ولست اتنقص الادب . وانما اتنقص اللعب واللهو بالالفاظ ، كما يفعل معظم ادبائنا . يجيزون لعبهم ولهوهم على الناس كانه ادب . فنحن فى حاجة الى ادب مصرى ، يدرس شئوننا المصرية ، بلغتنا العامية المهذبة . أو يدرس شئون العالم بنفس مصرية . ونحن أيضاً فى حاجة الى أدب علمى يستغل جميع النظريات العلمية الحديثة . أما درس العرب ، فهو فى نظرى نوع من الاركيولوجية ، يستوى ودرس الاثار المصرية أو الآثار الفينيقية . له قيمته العلمية والثقافية بالطبع ، ولكنه لايسمى ادباً مصرياً بذلك

ثم نحن فى حاجة الى ثقافة مصرية . فقد أُلفت كتب عن الاسلام وتاريخه ، والخوارج والاندلس ، ولكن لم يؤلف للآن كتاب عن اخناتون أو القاهرة أو المقوقس أو عقائد الشيعة فى مصر أو تاريخ الرومان عندنا أو المماليك ، أو نحو ذلك مما يمس النفس المصرية ويؤثر أو قد اثر فيها

انى عندما اعرض تاريخ الثقافة الحديثة فى مصر ، لا أتردد فى الحكم بان المعلمين قد أدوا لها من الخدمة أكثر مما أداه لها من يسمون أنفسهم

ادباء . فان أفضل الكتب المصرية الحديثة هى من اقلام المعلمين ، وليست من بهارج الادباء المضحكة . واعتقادى أن المعلمين سيحملون عبء الثقافة فى المستقبل مدة غير قليلة ، حتى ينسى ادباؤنا الاعيبهم ، وماحفظوه عن ظهر قلب من لغة الجاحظ والجرجانى وأشعار النابغة وابن الرومى

ونحن فى حاجة الى ثقافة حرة أبعد ماتكون عن الاديان . ولا بأس من أن نعتمد على الترجمة الى حد كبير ، حتى يتمصر العلم ، وتتمصر الفاظه ، وعندئذ نسير فيه بالتأليف

١٧ – نحن والأجانب

ان الاجانب يحتقروننا بحق ، ونحن نكرههم بلا حق

فقد رأونا منذ دخول الانجليز ، ونحن نحاول أن يمتلكنا الاتراك دون الانجليز . وسمعونا نطالب بلسان مصطفى كامل والخديوى عباس والشيخ على يوسف بالاستقلال ، ولكن لا لكى نكون أسياداً بل لكى نكون عبيد الاتراك . فاحتقرونا لذلك بحق

ثم نحن كرهناهم . وكانت أكثر كراهيتنا لهم حسداً لانهم نازعونا البقاء فغلبونا ، واشتغلوا بالتجارة والصناعة والصيرفة ، ولم يتركوا لنا سوى الزراعة نعمل فيها كالعبيد . ولم يكن لنا حق فى كراهيتهم ، لأن هذه الأبواب التى طرقوها واثروا منها كانت مفتوحة لنا ولم نطرقها

والأجانب ماداموا أجانب فهم شوكة فى جسم الأمة . فيجب لذلك تمصيرهم والتزاوج بيننا وبينهم ، وحضهم على ارسال اولادهم الى مدارسنا ، حتى يعرفوا لغتنا ويقرأوا صحفنا وكتبنا . كما يجب أن نسمح لهم بالتوظف فى الحكومة ، والانتخاب للبرلمان ، حتى تغدو عواطفهم مصرية ، لا يعرفون لهم وطناً ثانياً غير مصر . وبقول آخر ، ينبغى أن ننظر للاجنبى كما تنظر اليه حكومات الولايات المتحدة . فهى بمجرد وصوله الى بلادها تحاول أن تؤمركه . فان لم تقدر على ذلك ، تسلمت أولاده وصبغتهم فى المدارس بالصبغة الاميركية ، فينشأون اميركيين مخلصين تتمثلهم الأمة فى جسمها . وهذا مايجب أن نفعل نحن مع الاجانب . يجب أن نمثلهم . ويجب أن نمنع وساوسهم ، فنفصل الدين عن الدولة ونلغى تعليمه فى المدارس

وهم اذا اختلطوا بنا فى الزواج ، وصارت لغتنا لغتهم ، فليس يبعد أن ننزع لذلك نزعتهم فى الصناعة والعلم والتجارة والصيرفة

١٨ – القبعة رمز الحضارة

وقد يكون اصطناع القبعة أكبر مايقرب بيننا وبين الاجانب ويجعلنا أمة واحدة

والقبعة هى رمز الحضارة ، يلبسها كل رجل متحضر سواء أكان يابانياً أم صينياً أم انجليزياً أم اميركياً . ونحن اذا لبسنا القبعة ، فلسنا

بذلك نلبس لباس اوربا فقط ، بل نصطنع لباساً اتفق المتحضرون على وضعه على رؤوسهم كما اتفقوا على أن يأكلوا بالسكين والشوكة أو كما اتفقوا على أن يستحموا كل يوم . فان للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها ، واتخاذ القبعة من هذه العادات . فلسنا نحب أن نخرج على العالم المتمدين بلباس خاص يجعلنا فى مركز من الشذوذ يجلب الينا الانظار فيعمد السائحون الى تصويرنا كأننا امة غريبة عن الأمم التى جاءونا منها

ومما يدل على أن حركة الوطنية بايدى اناس غير قادرين على الاضطلاع بها ، ان الحركة التى قامت فى العام الماضى وكانت غايتها اصطناع القبعة قاومها زعماؤنا وقتلوها فى مهدها . فاثبتوا بذلك انهم لا يزالون اسيويين فى افكارهم ، لايرغبون فى حضارة اوربا الا مكرهين

وقد ادرك مصطفى كمال الذى لم تنجب بعد نهضتنا رجلاً مثله ولا نصفه ولا ربعه ، مقدار ماللقبعة من القيمة والاعلان بالانسلاخ من آسيا والانضمام لاوربا . ولم يمتنع عن استعمال السيف فى سبيل ذلك

اننا نلبس كل مايلبسه الاوربى عدا القبعة . ولكن الانسان يعرف بوجهه ، والقبعة تنم بصورة الوجه . ولذلك سنبقى فى نظر أنفسنا ، وفى نظر الاوربيين ، شرقيين ، حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا ونعلن انسلاخنا من الشرق

١٩ - فلندخل عصبة الأمم

واجبنا لأنفسنا أن نرقى بلادنا بالسير فىماينهجه المتمدنون من الحضارة : نتخذ الحضارة بدل الزراعة ، والعلم بدل الأدب ، أو نجعل الأدب والزراعة علميين

ولكن علينا واجباً نحو العالم لا يفكر فيه أدباؤنا أو شيوخنا البتة . بل عندنا من الناس من يبلغ تعصبهم للقديم ، أن يتمنوا زوال الحضارة الاوربية ووقوع الشر للاوربيين . وهذا عين الجحود بالانسان ، والكفر بالتطور . فان الانسان الاوربى أرقى انسان ظهر فى العالم للآن ، والحضارة الاوربية على مافيها من عيوب تعد بالمئات ، هى آخر درجات التطور الاجتماعى . ومن البلاهة البالغة أن يظن أحد الشيوخ أن حضارة بغداد أو القاهرة أو الاندلس كانت تبلغ فى السمو عشر أو جزءاً منماية مما تبلغه الحضارة الأوربية الآن

وواجبنا نحو العالم انما يكون بترقيته . لأن العالم هو الأمة الكبيرة ، وليست مصر سوى أحد أعضائه . واذا كنا نعلم صبياننا بانه يجب أن نضحى بأنفسنا لأجل مصر ، فيجب أن نضحى بمصر لأجل العالم

ولن تكون خدمتنا للعالم شيئاً سوى مساعدته على النهوض والسير فى الحضارة الغربية . ويجب أن يكف كتابنا عن التنطع والزهو فى انتقاد هذه الحضارة ، وان يعمدوا الى الاخلاص فى خدمة العالم . ويمكن الصحف أن تربى الجمهور على الاهتمام بالعالم اذا هى خصت صفحاتها

المهمة باخبار العالم ، تستوى فى ذلك اخبار مصر مع أخبار الأمم الأخرى كما تفعل الصحف الانجليزية . أما تنحية أخبار العالم فى الصفحات الأخيرة ، بل فى زوايا الصفحات الأخيرة ، فليس مما يبعث فى النفس روحاً عالمية تعدو حدود الوطن ودائرة الوطنية

ثم يجب أن ننضم الى عصبة الأمم ، ونزيدها قوة بمقدار مافينا من قوة ، مهما كانت صغيرة فانها تكبر باضافتها الى قوى الخير والبر فى هذه العصبة ، التى هى بذرة حكومة المستقبل للعالم كله

٢٠ – الخـــاتمة

يرى القارىء من هذا الفصل الذى ختمت به هذا الكتاب انه تكبير للمقدمة ، إذ هو مثلها دعوة الى التنصل من آسيا والانضمام لاوربا ، والايمان بحضارتها وثقافتها . وكل من يقرأ هذا الكتاب ويرى حماستى لهذه الحضارة ، لا يعجب اذا هو تأمل أحوال الأمم الناهضة . فليست أمة تنهض فى العالم الآن الا وتنسلخ من قديمها ، سواء أكان هذا القديم آسيوياً أم غير أسيوى . فهذه اليابان قد تفرنجت ودخلت فى الطور الصناعى ، وصار لها علماء يكتشفون ويخترعون . وهذه الصين قد اصطنعت اللغة العامية وهذبتها ، وتركت لغة الشيوخ القديمة ، والأدب القديم ، وأخذت تترجم كل مايجد من المطبوعات الأوربية . ونحن فى مصر ليس لنا من المؤسسات الحسنة كالبرلمان أو المحاكم أو المدارس الا

ماأخذناه عن اوربا . وكل ماهو باق لنا من القديم سيىء لايزال يؤذينا ، مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية وكلية الازهر والمجالس الملية والبطركيات العديدة

ثم ان الزعامة السياسية فى أيدى أناس ليست فيهم الكفاية للقيام باعبائها . ودليل ذلك فشلهم العظيم فى عدم الاتفاق مع الانجليز ، وفى عدم ادراكهم قيمة اتخاذ القبعة . ولكنى لا أزال مع ذلك متفائلاً أرى أن الجمهور يسبق الزعماء ويجرئهم على السير بخطوات واسعة نحو الاستقلال بجميع أنواعه . فشبابنا قد سئم سخافة أدبائنا ، وصار يطلب من الأدب شيئاً جديداً مغذياً غير الكلام عن العرب بلغة العرب . وشبابنا أيضاً يوشك أن يلبس القبعة لأنه يجد هواناً فى الشذوذ من العالم المتمدين . وهو أيضاً قد أبصر اننا اذا أخلصنا النية مع الانجليز ، فقد نتفق معهم اذا ضمنا لهم مصالحهم . وهم فى الوقت نفسه اذا أخلصوا النية لنا ، فاننا نقضى على مراكز الرجعية فى مصر وننتهى منها

فلنول وجوهنا شطر أوربا

فهرست

صفحة

صفحة



مجموعة مقالات اجتماعية وعلمية واقتصادية عن واقع مصر ومستقبلها يختمها المؤلف بمقاله الشهير « فى مفترق الطرق » أو « خاتمة اليوم والغد » .

المستقبل بالفجالة والإسكندرية
ومؤسسة المعارف ببيروت